فلذات الأكباد[1]

أيْ بُنيّ !

نعود مرّة أخرى، ونتحدّث عن الشّباب في مراحل حياتهم المختلفة، وهم من هم ! فلذات أكبادنا، وأملنا للمستقبل، ونلقي نظرة على حياتهم في الماضي، وسوف لا نحيط بكلّ شيء عنهم، ولا نفصّل في كلّ المستويات، وإنّما نأتي بقطاع ضيّق نعطي عن طريقه صورة، لك أن تقيس عليها صوراً أخرى، ونترك لخيالك الجامح أن يركض في مضمارها.

لعلّ من المناسب، يابنيّ، أن نتحدّث عنهم

---

(١) قال الشّاعر حطّان بن المعلّى الطّائي، وهو شاعر إسلامي:

لولا بنيات كزغب القطا •• رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع •• في الأرض ذات الطّول والعرض
وإنّما أولادنا بيننا •• أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبّت الريح على بعضهم •• لم تشبع العين من الغمض

وفي رواية لامتنعت عيني من الغمض

تدريب الناشئين ١٢٣
العقد الفريد ٢/٤٣٨

بادئين بالولادة، وهي لم تكن تتمّ في مستشفى وإنّما في البيت عادة، وقد تتمّ في غيره من الأماكن المختلفة، فهذه امرأة ولدت وهي راجعة من عملها، ولدت آبنتها في الطريق تحت أثلة. ومن حسن حظّها أنّ ابنها الصغير كان يسير بجانبها، فأرسلته أمامها لخالته، وقالت له قل لها إنّ أمي جلست تحت الأثل لوجع أصاب رجلها، وكانت خالته قد دخلت في صلاة المغرب، فقطعت صلاتها، لأنّها عرفت أنّ أختها تلد، وركضت وفي يدها سراج ما لبث أن أطفأته الريح. ووجدوها قد ولدت، فسرّوا الطّفلة[1] وأحضروها مع والدتها إلى البيت. ولم يكن الطّفل ليفسّر هذا الانزعاج الذي بدا من جميع من حوله، ولعلّه أدرك الأمر عندما رأى أنه أصبح له أخت.

وأخرى كانت «تروس» في حقل بين أحواض الزّرع عندما جاءها المخاض، فتوقّفت للولادة،

(١) أي قطعوا حبل السرّ، وهو الحبل الذي يصل الجنين بأمه، عن طريق سرته.

وسرّت الطّفل ووضعته على عباءتها، وأكملت عملها، وعادت إلى بيتها تحمله. فهي لم تتوقّف عن العمل، وإنّما اهتمّت بإكماله، لم يساعدها أحد من النّاس، ولم تحاول أن تبحث عن أحد، ولعلها ضنّت به عن أن يشاركها في جلبه إلى هذه الدنيا أحد.

كنّ فائقات، يا بنيّ، يكددن ليل نهار، وقد نفعهنّ ذلك، فقوّى العمل بنيتهنّ، فقاومن، رغم نقص الغذاء، الأمراض المنتشرة مع قلّة الأدوية، وانعدام الوعي الصّحّي، وكان المشي مسافات طويلة يفيدهن في سهولة الولادة. وقد ثبت هذا في العلم الحديث. فإنه إذا أبطأت الولادة عند المرأة الحديثة نصحها الطّبيب أن تمشي وتمشي وتمشي. إنّ الله سبحانه يلهم الحكمة من يرضَى عنه، لِما يبذل من جهده فيما يفيده. تكاد الواحدة منهنّ تقضي يومها كلَّه في حركة يمينا أو يسارا، طلوعا أو نزولا، ذاهبات أو راجعات مرويات أو غاسلات أو

جالبـــات أو زائـرات، أو ذاهبـات لمساعدة أو ردّ مساعدة. لو وزن ما يقمن به لم ينقص عن الرّجل. ولا يمنُنَّ ولا يتأفّفنّ.

ويولد الطّفل، وترضعه أمّه، وتكمّل له الرضاع سنتين إن استطاعت، فإن عجزت عن سدّ حاجته في السّنة الأولى، لنقصِ الحليب عندها، أو لمرض أصابها، أو لوفاتها، التَمست له مرضعة تكون له أمّا أخرى، وقد ينفع الطفلُ «أمَّه من الرّضاع» في المستقبل كما نفعته في الماضي. وقد يكون نفعه لها وهي ترضعـه، فقـد تكـون فقـيرة وأهله أغنياء، يكرمونها من أجله. ويصبح أولادها إخوانه. وفي الرّضاع من أمّ أخرى نفع، وفيه كما سبق أن قلنا بعض المشاكل التي قد تظهر فيما بعد. وبعضها ليس هناك حيلة لتجنّبه. والمحظوظ من يجد مرضعة من أقـربائه الأقربين، حتى لا تتعقّد الأمور، وتختلط الأمّهات من الرّضاع، ويتداخل الأخوان والأخوات.

وما دمنا في الحديث عن الرّضاع والمرضعات، فسوف أقصّ عليك قصّة وردت فيها كلمة الرّضاع وفيها ذكر للصّلة الوثيقة بين المرضعة والرّضيع:

أكل رجل مع معاوية، وقيل مع غير معاوية، فجعل يمزّق جَدْيا أمامه على المائدة، ويمعن في أكله. فقال له معاوية: «إنّك تحرد عليه كأنّ أمّه نطحتك». فقال الرّجل: «وإنّك لمشفق عليه كأنّ أمّه أرضعتك»[1].

وتتوقّف حياة الطفل الأولى على حالة عائلته، غِنًى وفقراً، فقد تمرّ بسلام، فلا يعاني من عسرة في الغذاء أو الرعاية، أو قد يتعرض لأمراض قد يشفى منها أو تترك به عاهة، أو ينتقل إلى المقبرة، شأن عدد كبير من الأطفال الذين يموتون كلّ يوم، ومن هذه الأمراض كانت العاهات منتشرة، وأغلبها فقد العين أو ضعف بصرها، وقد تكون العاهة في اليد

(١) محاضرات الأدباء، ص ٢١٨، قارن هذا بما ورد في كتاب الأذكياء ص ٩٣.

obeikandi.com

أو الرجل نتيجة كسر لم يجبر بطريقة سليمة.

وقليل من الأطفال يجد الرّعاية الكافية في السّنوات الأولى ماعدا محاولة القادر من الأهل على حماية ابنه من البرد أو الشّمس، وإلّا فالأغلبية في شغل شاغل بالمعيشة، والسعي لتوفيرها، والجهاد في سبيلها، مما يجعل إهمال الأطفال أقرب إلى السّائد. فالطّفل يخرج في الصّباح ويلعب في شويرع أهله مع أنداده ومن هم أصغر منه أو أكبر، ويأخذ دوره في اللّعب تابعًا أو متبوعًا، غالبًا أو مغلوباً. يوم يُبكّى غيره، ويوم يبكّيه غيره، يوم يَظلم زميلا، ويوم يظِلمه زميل. وقد يبدأ اليوم وهو ودود مع آخر، فلا ينتهي اليوم إلّا وهما متنافران. وقد يبدآن اليوم متجالدين، فلا ينتهي اليوم إلا وهما معًا على ثالث.

والطّفل وهو يلعب بهذه الصّورة، في غفلة من أهله، يتعرّض لأنواع من الأخطار، على رأسها التّرامي بالحجارة. هذا أمر يلجأ إليه الأطفال في

العراك سريعاً. ويبدو أن السّبب يكمن في وجود فريقين غير متعادلين، فإنّ المتعاركين إذا كانا متساويين في القوة الجسمية فإنّهما يكتفيان بالمصارعة، يكتنفهما الصّغار الآخرون ممن يشجّع هذا أو هذا. ولكن إذا كان أحدهما يشعر أنّ هذا التّلاحم ليس في صالحه فإنه يلجأ إلى الحصَى، وهذا في الغالب إذا لم يكن له من أخ أو صديق حام ومجير. والأطفال في هذه السّنّ سريعو التغيّر في العداء والصّداقة، وتغيير الجانب الذي يحتمون به أو يحمونه.

وأحيانا لعب الصّغار هذا يكون سببا في دخول الكبار طرفا في النّزاع، خاصّة إذا كانت الآثار موغلة في الأذى، كأن تتسبّب في سيلان الدّم من الرأس أو الوجه، أو تتسبّب في أذى العين، أو كسر إحدى العضلات، ويتوقف إنهاء النّزاع بين الكبار على عدّة عوامل: رزانة أحدهما، أو بساطة الأصابة، أو الأخذ على يد الجاني من قبل والديه.

أو تراضي الصّغـــار من خلف الكبـــار، وإبـطال الشّكوى من أساسها.

ومـا دام الصّغـار في حدود الشّويرع الملاصق للبيوت فالأهل إلى حدٍّ ما مطمئنون على الصّغار، لأن المهتمّ منهم يطلّ بين آن وآخر على آبنه. وإذا غابت أصوات الصّغار عن آذان الكبار استوجب الأمـر من الكبـار أن يتحرّوا، فالهدوء أحيانا من جانب الصّغـار مقلق لجانب الكبـار، وغـالبـا ما يكتشف أن الصّغـار في تمثيليّة طبيعيّة تنتهي بأذى يأتي نتيجة مؤامرة على أحد أو على شيء. وقد تكون ضدّ الغنم أو البقر أو الدّجاج.

والتمثيليات بينهم لا تنقطع، فهم أحيانا يمثّلون الحياة في البيوت، هذا أب، وهذه أم، وثالث عم، ورابع مدرس، وهكذا، وأحيانا تأتي المشاكل من قيام شخص بدوره على الوجه الأكمل، فقد يزيد فيـــه قليـــلا، فالـذي يقـوم بدور الأب، أو دور المـدرّس، قد يؤدب المخالف، وهما يمثلان، أدبا

ينسى معـه أنّ الأمر تمثيل، فيجور لانسجامه مع الـدّور الذي يقوم به، ولا يوقظه من الجور إقدام المؤدَّب بالدفاع المحتّم في مثل هذه الحالة، فلا هذا يدرك أنه تعدّى دوره، وأن زميله خرج عن طور التّمثيـل وبدأ يدافع عن نفسه دفاعًا حقيقيًا، ولا الثّاني يدري أن الأول لا يزال يظن أنه يمثّل، وأنه لم يتنبّه إلى أن الثّاني لم يعد يمثّل.

وسـوء التّفـاهم هذا مزعج، ليس في الانسان الصّغير فقط، بل في الحيوان أحيانا، وأبين مثل لهذا الكلب والقطّ، فالقطّ من عادته إذا غضب أن يحرّك ذيله، والكلب بخـلاف ذلـك فهو إذا فرح يحرّك ذيله، فتصوّر، يا بنيّ، ماذا يحدث عندما يتقابل قط وكلب، ويبدأ القط بتحريك ذيله، فيظنّ الكلب أن القطّ فرح بلقائه، فيقترب منه للتودّد إليه، وكلما زاد القطّ في تحريك ذيله ظنّ الكلب أن هذا زيادة في التلهف للتقـرّب منه والتودّد إليه، والقطّ يرى الكلب يحرك ذيله، فيظنه يريد به شرّا، وأنه يستعدّ بهذا للهجـوم، فيبـدأ، وهـو يراه يقترب، يستعدّ

للمعركة، فإذا كانا على وشك التلامس، القطّ مع الكلب، قفز القطّ في وجه الكلب ليمزّق بأظافره وجهه، فيندهش الكلب على هذا التغيرّ المفاجئ.

وبعد أن يتعدّى الأطفال المرحلة التي لا ينفعون فيها إلا للّعب، ينقسمون إلى أقسام، قسم يذهب إلى الكتّاب، وقسم يلتحق بالعمل مع والده، أو مع غيره، ليساهم في كسب الرّزق له ولأهله، وقد يذهب قسم إلى الكتّاب في الصباح، ويعملون مع ذويهم أو غيرهم بقيّة النّهار. وهذا العمل أو الدّراسة يعطيهم مادّة للحديث عندما يجتمعون عصرًا أو ليلاً أو يوم الجمعة حيث لا مدرسة، أو العمل فيه محدود.

ولكلّ قسم من أقسام الشّباب نوع من الأحاديث يصبّها في آذان مستمعيه، وقد يضفي عليها المغالاة، وقد يخترع ما لم يحدث، ليزيد من أهميته، وليؤثّر عليهم في الجانب الذي يختاره. فابن المدرسة لديه ما يقوله عن السُّوَر التي حفظها من

القرآن، وما رآه من تأديب «المطوَّع»، المعلّم، لأحد المذنبين من التّلاميذ.

وقد يحكى لهم ما اكتشفوه من أن فلانا جاء إلى المدرسة، والوقت شتاء، لابسًا سبعة «أثواب» كلّ ثوبٍ فوق الآخر، وكلّها قطن، ولم تدفئه. وفلانًا عنده «زربول»، حذاء، يقيه برد الأرض. وقد يكون الحديث عن التّلميذ الفلاني الذي ظنّوا أنه من أكثر التلاميد أدبا وهدوءاً، وقد أدّبه المدرس اليوم، لأنه تبيّن أن تحت هذا الهدوء شيئا يوجب التأديب، فقد تبين أنّه قد اقتنى كلبا في إحدى الخرابات التي خارج المدينة. وكان يذهب إليه كل يوم مساء ليطعمه، وكان يدّخر «الحنيني» من فطوره في الصّباح، ليطعمه له في المساء. وهو غذاء متكامل، لأنه يحتوي على عنصر التّمر والخبز والزّبدة.

وقد فضحته «مخباته»[1] جيبه[2]، الذي كان يتسرّب إليه بعض السّمن الذي ما فتئ أن أسودّ من ملامسة الغبار له، فأثار الشكّ عند أهله، فأخبروا المعلّم الذي نصب رصدا له، ومسكه «بالجرم المشهود». فكان عقابه قاسيا أمام التّلاميذ، الذين وهم يشمتون به، لأنّه ظهر منه خلاف ما كان يبطن، ولأنّه عوقب، إلا أنّهم غبطوه لأنه كان عنده كلب طوال هذه المدة دون أن يعكّر عليه أحد صفو هذه الميزة. وكانت متعة له من قبل أن يكتشف أهله ذلك.

وهذا ثان لم يحفظ دروسه فأدّبه المدرّس، وذاك ثالث أحضره والده يجرّه بأذنه لأنّه تبيّن له أنه لا يذهب إلى المدرسة، وكان يتظاهر بالذّهاب إليها، ولكنّه بدلا من ذلك كان يذهب إلى الحقول، يتصيد

(١) المخباة في نجد : هي الجيب في الحجاز .

(٢) والجيب في نجد : هو فتحة الثوب الأمامية، منها يدخل الرأس، فيه الأزرّة (جمع أزرار) في نجد، وزرار وجمعه أزاريز في الحجاز .وهناك نوع من الجيب يسمى في نجد «الزبزور»، وهو الجزء الخارجي لفتحة الثوب التي يدخل الرأس منها.

الطيـور، يضع لها «الحُبّالة» أي «الخِيّة» والمصائد المختلفة، «ويحبل» لها ليصيدها، ولا يعود إلى البيت إلا مع خروج الأولاد من المـدارس، فيركض معهم، وينشد أناشيدهم التي أَلَّفُوها هم بوحي مما يدور في أذهـانهم، ويـتنـاسب مع عقليّـاتهم، ويتجاوب مع «عصافير» بطونهم وزقزقتها، صدى للجوع. يركضون ويقولون:

يا ويل الجِصّة وانْ جيته   وآكل عشرٍ قبل أسمّى

سوف يصدقون في قولهم هذا، وسوف ينتهون من الأكل بكامله ولن يتذكروا أن يقولوا باسم الله الرحمن الرحيم.

ومـا دمنـا، يا بنيّ، في الحـديث عن المـدرسة والمدرّس، ومـرّ ذكر الأدب والتّأديب قبل قليل، سأسمعـك قصّـة طريفـة حدثت في زمن مضى، وسُجلّت في أحد كتب الأدب، وطرافتها، وهذا مما يعجبك، تأتي في أنّ الطّالب غلب أستاذه بالحجّة، والحكمة، يابنيّ، يؤتيها الله من يشاء، وينزعها ممن يشاء:

obeikandi.com

ذكر أن السّريّ بن المقلس قرأ على مؤدّبه: ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنّم وردا﴾[1]. فقال له: يا أستاذ، ما الورد؟ فَقال له المؤدّب: لا أدري. فقرأ: ﴿لا يملكون الشّفاعة إلا مَن اتّخذ عند الرحمن عهدا﴾[2]. فقال له: يا أستاذ، ما العهد؟ فقال المؤدّب: لا أدري. فقطع السّريّ القراءة، وقال: إذا كنت لا تدري، فلِم غررت بالناس؟ فضربه المؤدّب، فقال السّريّ، يا أستاذ، ألم يكف الجهل حتّى أضفت إليه الظلم والأذى؟ فاستحلّه المؤدِّب، ثم تاب إلى الله من التأديب. وأقبل على طلب العلم[3].

والنجابة ليست غريبة على بعض الصّغار، وكثيرا ما أدهشت الكبار، وكتب التراث ملأى

---

(١) القرآن الكريم، سورة مريم، الآية (٨٦).

(٢) القرآن الكريم، سورة مريم، الآية (٨٧).

(٣) عين الأدب، ص ١٩٢.

openkandi.com

بأخبـار ذلـك وقصصه، ومن أمثال ذلك ما ذكره صاحب كتاب الأذكياء في هذا الباب:

قال: بلغنا أن المعتصم ركب إلى خاقان يعوده، والفتح (ابنه) صبيّ يومئذ فقال له المعتصم: أيّما أحسن دار أمير المؤمنين أو دار أبيك؟ قال: إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي أحسن. فأراه فِصّا في يده، فقال: هل رأيت يا فتح أحسن من هذا الفصّ؟ فقال: نعم، اليد التي هو فيها[1].

على أي حال رغـم ما في هذه القـصص من طرافة، فعليـك أن تأخـذها بحذر، لأن بعضها وضـع ليرجّح جانبا على جانب من طوائف الأمم المتعايشة في ذلك المجتمع. وانظر إليها من جانب الطّرافة وعلى أنها قصّة قد تكون مركّبة، وهي قد تدلّـك كيف تعمـل العقـول حينئـذ، وتحدّد لك مراحل الطّموح عند النّاس.

(١) الأذكياء: ص ٢٠٢.

ولعلّك، يابنيّ، لم تسمع عن أخبار القاضي إياس بن معاوية، وذكائه مع الخصوم، ومقدرته على كشف ما يحاول أحدهم إخفاءه أو إنكاره. وذكاؤه يبدو أنه قد أطلّ برأسه منذ أن كان صبيّا:

يُروى أنه تقدم، وهو صبيّ، إلى قاضي دمشق، ومعه شيخ، فقال: أصلح الله القاضي! هذا الشّيخ ظلمني، واعتدى عليّ، وأخذ مالي. فقال القاضي: ارفق به، ولا تستقبل الشّيخ بمثل هذا الكلام. فقال إياس: أصلح الله القاضي! إنّ الحقّ أكبر منّي ومنه ومنك. قال: اسكت! قال: إن سكتّ فمن يقوم بحجّتي؟ قال: تكلّم بخير. فقال: لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له. فرفع صاحب الخبر (للخليفة) هذا الخبر، فعزل القاضي، وولّى إياس مكانه[1].

ثم انظر، يا بنيّ، إلى الفطرة عندما يريد لها الله

(١) الأذكياء: ص ٢٠٢، والعقد الفريد ج ٢ ص ٢٧١ ويرويها بطريق مختلفة.

الاضاءة، فهي تشعّ بما يبهر، وتأتي بما يدهش:

أعرابي صغير أجاب عندما سئل أتحبّ أن يكـون لك مئـة ألف درهم، وأنّك أحمق؟ قال: لا والله، فلما سئل ولِمَ؟ قال أخاف أن يجني عليّ حمقي جنـايةً تُذهب مالي، ويبقى عليّ حمقي.

تدبّــر، يا بنيّ، كيـف دارت دواليب عقله في لحظة، فتصوّر مساوئ الحمق، فوجدها آفةً تغلب مبلغ المال الذي ذكر.

ونعـود الآن، يا بنيّ، إلى وصـل ما انقطع من حديثنا عن الأطفال، فنجدهم يتحدثون كيف أنّ معلّمهم رأفةً منه وعطفا وتجنّبا للبرد، أبقاهم في «صفّة» المدرسة حتى تنتشر الشّمس، ويدفأ الجوّ، فيخرجهم إلى طريق المسجد يجلسون للدراسة في «مشراقه»[1] حيث تنتشر الشّمس، وكيف استغلّوا

(١) المشراق لعب دورا في حياة النّاس في نجد باديةً وحاضرة، وكان مظهرا من مظاهر حياتهم في الشّتاء تكاد لا ترى منحنى تشرق عليه الشّمس، إلا وكبار القوم ممن لا عمل لهم قد جلسوا فيه.

فرصة البقاء في الصفّة والجلوس حو ل النّار، بعد أن دفئت أجسامهم، فأخذوا يرمون بعض «الطِّلو» «الغرين»[1] في النّار، أذى «وعفرتة»، حتى يفرقع، ويتنـاثـر الجمـر على أثـره على من حول النّـار، فيتباعدون عنها حينئذ، ويتمكّن من ليس له مكان حولها من أن يقترب، ولا أحد يدري من الذي رمى الغرين، هذا الطّين الخاصّ اليابس الذي تُطلى به الألواح لتستعدّ للكتابة عليها. وبهذا التّصرف من الـعـبـث يعـرف المعلّم أنهم بدأوا يملّون النّـار فيخرجهم إلى الخارج.

وسوف يتحدّثون عن كيف لمَّا سمح لهم المدرس بالـذّهـاب لمحـو الألـواح وتنـظيفهـا في «الحائط» القـريب، وهـو بستـان له شبـه بركـة خارجـة، يستفيـدون منهـا لغسل الألواح وطليها بالغرين، إعداداً للكتابة عليها عندما يجفّ «الطّلو» الطلاء. لعبـوا حينئـذ أكثر من الوقت المقرّر لهذا العمل،

(١) مادة طينيّـة خاصّـة تبلّ بالماء، وتطلى بها ألواح القراءة، فتمحو ما بها من كتابة، وتهيّؤها لكتابة جديدة.

وغافلوا المدرّس، ناسين أنّه كان مثلهم في صغره، ويعـرف أعـمالهم، ولكنّه يغضّ النّظر لأنّه يعرف طبيعتهم أولاً، وثـانيـا لأنّه يرتاح منهم إذا أبعدوا عنـه، وثالثاً لأنّـه يعتقـد أنّ هذا يعـطيهم دفعة للاقبـال على القـراءة فيـما بعـد. وكيف وهم في طريقهم لطلي الألـواح مرّوا «بـالسِّرْح»[1] التي مدّدهـا رجل امتهنها مصدرا لرزقه، وثبّتها بأعواد متتالية. يأتي هؤلاء الصّغار يتبارون في قلع الأعواد، فإذا صادف وجود الرّجل حولها ركض في أثرهم، وهم يرون أنّ هذا جزء من اللّعب، مهما لحقهم من الأذى بسببه، وقليلا ما يلحقهم لأنّ الرجل أعرج، وبطيء الحركة.

ويتحـدّثـون عن المعارك التي تدور رحاها بين التّلاميذ بعد الانتهاء من المدرسة، لأنّ كثيراً من الخصـام لا يمكن متـابعتـه في المـدرسة، فيتواعد التّلميذان المتنازعان في مكان معيّن بعد الدراسة،

(١) مفردها سريح: جلد البعير يقص حبالا، تستعمل بعد المعالجة، للسواني لرفع الماء من البئر.

ويـنـقـسـم الأولاد فريقـين كل فريق مع أحـد «المـتـضـاربـين»[1] «يتفـرّجـون» عليهم كأنّهم «يتفـرّجـون» على «ديكة» تتصارع. وينتهي الأمر بالاقرار للغالب من المغلوب، أو بتمزيق الملابس. أو بمرور أحد الكبار فيعطي هذا «صفعة» وهذا «سطرة» ويفرح المغلوب، وقد لا يكره الغالب هذا أيضاً.

ويتحدّثون عن النّصارى الذين مرّوا بالمدرسة، وجـوهـهم حمر كأن الـدّم سوف يصبّ منهـا، ويتعجّبـون كيف يستـطيـع بعضهم أن يأكل أمام بعض، لأنّ هذا الاحمرار الزائد «يطيح الكبد»[2]. بعض هؤلاء الشّباب ذهبوا إلى الخارج ودرسوا في بلاد هؤلاء، وتغيّرت عندهم معايير الجمال. على كل ليس فقط احمـرار وجـوهـهم هو الـذي يلفت أنظارهم، وإنما «كوابيسهم» قبعاتهم التي يلبسونها على رؤوسهم حتى لا يروا سماء ربّهم كما قيل لهم.

(١) في نجد في بعض المناطق يسمى هذا مهاوشة وفي الحجاز مضاربة. وفي نجد يقول المتحدي للآخر «تطلّع» وفي الحجاز «اطلع لي برا».

(٢) أي يقرف أو يقزز.

obeikandi.com

ومعهم آلات تصوير «يعكسون» بها الأولاد في مدرستهم التي ليس فيها فِراشَ ولا «ماصات» ولا كراسي. فِراشهم التراب، و «ماصاتهم» جدار المسجد الذي يسندون إليه ظهورهم، وقد حفره «جذمار[1] المطوّع» من كثرة ما يدرجه عليه لينَبّه الأولاد لاستمرار القراءة، حاكّا له صاعدا ونازلا.

يتحدّثون كيف أنّهم وقد عادوا بعد صلاة الظهر إلى المدرسة، وبعد أن شربوا الشّاهي الذي هو أشبه بالماء الذي ينتج عن غسيل أواني الشّاهي لقلّة الشّاهي فيه، وجدوا المعلم لم يحضر بعد وقد وكل الأمر إلى أحد الأولاد الكبار، وكيف أنّ أحدهم «رشا» هذا الولد «بقفرة»، قديد من اللحم اليابس، فتهاون معه وتساهل، ولم يجبره على القراءة، هو والآخر الذي أعطاه قطعة صغيرة من «الكليجا»، والثالث الذي أعطاه شيئا من «المعمول». وهي أشياء لو أعطيت المعلم نفسه فقد

(١) عسيب النخلة، بعد نزع الخوص منه، والمطوّع: المعلم، وهو عادة يستعمل الجذمار عصى يضرب بها التلاميذ عن بعد.

يتساهل معهم، فما بالك بطالب مثلهم. وينصبّ عمله على الطلاب الذين لم يعطوه شيئا.

يقصّون على الآخرين الذين ليسوا معهم في المدرسة كيف ذهبوا في «زفّة» وحفل مع أحدهم، وقد حفظ جزء «عمّ»، وهم ينشدون: «حافظ حافظ جزو عمّ، حافظ حافظ كلّ القرآن». وكيف اخترقوا الأزقّة والحارات من المدرسة إلى بيت التّلميذ الحافظ، وكيف استقبلهم كبار العائلة بفرح وبهجة، وكيف أكلوا خلافا للعادة طعاما مطبوخا في الصّباح، لقد كان هذه المرّة «تمّنا»: أرزا، وهو أمر يسجّل في الذّاكرة، لأنّ حصوله نادر. وترى المستمع «يتلمّظ» وهو يتصوّر الصّحون ملأى بالأرز والأولاد تنزل أيديهم وترتفع كأنها سنّ حفّار، لا تبالي بحرارة الأكل، ولا بنظرات الآخرين، إنّه يوم مشهود، ولا ينسى.

الأحاديث شتّى، والقصص تترادف، وكلّها من البساطة بمكان، ولكنّها تملأ فراغ هذه الأذهان الصّغيرة، ويرون فيها ما لا يراه الكبار، عالم خاص

بهم يكوّنون تفاصيله، بتصرّفاتهم المبسّطة، يتوارثونه بأجزائه جيلا بعد جيل، يسلّمه جيل إلى الجيل الآخر بأمانة، حتى لو قام جيل بعد موته بقرون لم ير أنّ فيه ما قد تغيّر. لأنّ الحياة عندهم هي الحياة نفسها، والمحيط هو المحيط،والطّبيعة على ما خلقها الله لم تهذّب بغير ما عرفوا.

ويشبّون عن الطّوق، ويدلفون إلى عهد المراهقة أو يزيدون عنه، وتتغيّر نظرتهم للحياة، وتتغيّر ممارستهم لها، وتكبر أمورهم معهم، ولا يكون الشّارع القريب من بيوتهم هو مسرح لعبهم ولهوهم، بل يبتعدون إلى أطراف القرية أو المدينة، ويدلفون إلى الحقول والمزارع، طوعا من أصحابها أو كرها، ينتهزون فرصة «الإيضاع» عن السّواني، وإراحة الحيوان الذي يقوم بمتح الماء في القيلولة، فيمتّعون أنفسهم بالسّباحة في الآبار، وكلّما كانت البئر واسعة وعميقة، كان الاقبال عليها أكثر، والتملّص للدّخول إلى حائطها أشدّ إلحاحا. وفي هذه الآبار والبرك مجال لتعلّم السباحة.

وقد يسمح صاحب البستان بالاستفادة من بئر بستانه، وقد لا يسمح، ولكنّ هؤلاء الشّباب إذا لم يسمح، يخاطرون، ويضعون على مسافة من البئر من يرصد الطّريق، وينبّه السابحين إلى صاحب البئر إذا أقبل، وقد يفاجئهم فينالون من الجزاء ما سرعان ما ينسونه، ويكرّرون فعلتهم، ويتكرّر العقاب، والغريب أن الجيل الماضي (من الفلاحين) الذي كان مرّ بهذا الدّور في شبابه لا يفكّر في التسامح من باب أنّ هذه طريق للشّباب مسلوكة، وأنها من الاغراء والفائدة بحيث تحتاج إلى تنظيم بدلا من المطاردة والمقاومة. وليس هناك من يتذكّر ما كان يأتي به في شبابه، وقد يكون في هذا البئر بعينها، أو في مثيلة لها. فتخدّره الذّكرى فيتساهل مع هؤلاء الشباب. ولكن لهم من الرأي بعد أن كبروا ما قد يكون مانعا لمثل هذا التفكير. قد يكون السبَبَ في عدم التّساهل المخاطرُ التي قد تحدث لهؤلاء الشباب فيكون هو مسؤولا عنها، وقد يكون العبث «بالسِّرح» و «الأرشية» وبقية معدّات

البئــر هي السّبب في تصرّف صاحب البستــان. يضاف إلى هذا ما قد يأتي منهم من وطء وتخريب للزرع في طريقهم إلى البئر، وصرم للسّنابل قبل أن تنضــج، وسرقــة للمنتــوجــات، من «جــحّ» و «جراوة»: (حبحب وخربز).

والكبير منهم يعلّم الصّغير على السّباحة، وقد ينـزلـون إلى البئر عن طريق التّدلّي بالحبال، وقد يكون عن طريق الاستفادة من الفراغات بين حجار الطَّيّ الذي يجدون فيه أماكن لأصابع أقدامهم أو أيديهم. ويأتي وقت يكون النّزول إلى الماء سهلا على المتعلّم على السباحة، فهو يسقط نفسه من «الكافّة» أو «الجوبة» وهي شفة البئر التي في أعلاها، ويخرج بعد أن يسبح بالطّريقة التي ذكرناها. وبعضهم، خاصّة في أول الأمر، ينزل مستقيا مقَدِّما أصابع قدميـه، ولكنّـه بعـد مدّة، خاصّة إذا كانت البئر عميقة، ينزل مستقيا على رأسه مقدّما يديه قبله.

ويأتي وقت ينزل من «الدّامغة»، وهي أعلى من

obeikandi.com

«الكـافّـة» و «الجوبة» وأحيانا من الزرنوق. وإذا وجد نخلة بوضع تجعله يتمكن من النّزول من أعلى فرعها، فإنه لا يدّخر وسعا في أن ينزل منها. ومثل هذا التّنافس الذي يقرب من حافة الأخطار يوجب قلق أهلهم عليهم وقلق الفـلاح، فالشّبـاب إذا بدؤا في التّنافس فإنّ تفكيرهم لا يهديهم إلى نقطة الوقوف عن الدّخول في مرحلة الخطر، ولا ينتبهون إلى المحذور إلاّ بعد أن يقع. ولهذا النّشاط ضحايا يتكرّر حدوثها.

ويكثر عدد الأولاد في البئر أحيانا بما لا يطيقه حيّـزها، وهذا من الأخطار، ورغم أنّ لهم ترتيبا بينهم يحاولـون به تفـادي مثـل ذلك، وهو نزول أحدهم على الآخر مما قد يؤذيه إلى حد الموت، إلاّ أنّ هذا الترتيب لا يفيد أحيانا، ومن ترتيبهم أن ينبّه الذي فوق، ويريد أن يرمي نفسه، من في الماء، بقوله: «الماء»، أي أريد حيّزا من الماء أنزل إليه، فيردّ من في البئر «هولك» كلمة تنبّه إلى أنهم عرفوا بنـزولـه، وأنّهم أوسعوا له الحيّز المطلوب. ولكن

أحيانا يخونه ممسك يده أو رجله، فيقع دون تحذير منه لمن تحته، أو انذار، وهذا مأتى الخطر.

هنــاك مجموعة أخرى كبيرة من هؤلاء الشباب ليس لديهم وقت للّعب، والاسـترخاء في الحياة، لأنهم في أعـمال توجب الكدّ والكدح، كل واحد يتبـع في الغالب مهنة أبيه، يبدأ بمساعدته فيها، ويتعلّم منه أصولها، ثم يخلفه فيها عندما يشيخ، ثم عنــدمــا يلبّي نداء ربّــه. بين هؤلاء النّجــار، والصّــانـع، والفـلّاح، والتنّـاك أو السّمكــري، والخرّاز، والتّاجر الذي يجلس مع والده في دكّانه، أو يسافر معه من بلد إلى آخر. ومنهم الذي يبيع ويشتري في الحيوانات جمالا أو بقرا أو أغناما.

ويدخل بعض الشّباب في مدارس تختلف قليلا عن الكتّاب، فهي تعلّم مع القرآن الكتابة والقراءة والحساب، وبعض الموادّ الأخرى، مباشرة أو عن طريق موادّ أخـرى. ويملأ هؤلاء الشّباب الفخر عندما يجتمعون ليتذكروا ما جرى لهم أو منهم في

opelkandi.com

هذه المدارس، وأحيانا يميّز هؤلاء خارج المدرسة بما يظهر على ثيابهم من آثار الحبر، لأنّ الكتابة في تلك الأيـام تعتمـد على «غطّ»: غمس القلم في الدواة، ولا يعدم الكاتب من نقطة تقع على ثوبه. بل إنّ بعضهم يعمـد إلى رشّ الثوب بالحبر حتى تكـون العـلامـة ظاهرة، وتدلّ على أنه يدرس في مدرسة من هذه المدارس التي على هذا المستوى.

وهم يُقـدِمـون، يا بُنيّ، على نثـر الحـبر على ثيابهم، كما رأيت، طوعا واختيارا. للهدف الذي ذكرنا، ويبدو أنّهم ليسوا بدعا في النّظرة هذه إلى الحـبر، فهنـاك قصّـة من الـتراث جميلة، ذكـرهـا صاحب كتاب الأذكياء، يحسن أن تسمعها: قال:

حدّثـنـا ابن المحسّن عن أبيـه، قال: سمعت أبا القاسم الحسن بن علي بن مقلة يقول: كان أبو علي بن مقلة يوما يأكل، فلمّا رفعت المـائدة، وغسل يده، رأى على ثوبه

نقطة صفراء من الحلوى التي كان يأكلها، ففتح الدواة، واستمدّ منها نقطة على الصّفرة، حتى لم يبق لها أثر، وقال: ذاك أثر شهوة، وهذا أثر صناعتي، (وكان كاتبا) ثم أنشد:

إنّما الزّعفران عطر العذارى
ومداد الدّاواة عطر الرّجال[1]

وكما رأيت، يا بُنيّ، في هذه القصّة البديعة، وضع الحبر في كلا الحالين كان متعمّدا، إلا أن النيّة والهدف مختلفان.

وقال الحسن بن وهب في ترشيش المداد على الثواب:

وماشيء بأحسن من ثياب
على حافاتها سمة المداد[2]

وما دمنا في هذا الباب، فعله يعجبك أن تسمع

(١) الأذكياء، ص ٤٨.
(٢) محاضرات الأدباء، ص ٤٨.

شيئا عن الدّواة، وعاء الحبر، فلها شأن عند القوم في ذلك الزمن البعيد، وفي زماننا، وتستحق أن يكتب فيها، وفي صناعة الحبر، كتيبًا.

قال الشيخ المزني في وصف دواة:

أنا دواة يضحك الجود من
بكا يراعي جلّ من قد براه
دلّوا على مثلي من شفّه
داء من الفقر فانّي دواه[1]

ونختم الحديث عن الدّواة بهذا الإلغاز عنها على لسان أحد الشّعراء:

وزنجيّة لم تلدها الأناث
وفي جوفها من سواها ولد[2]

والآن نعود إلى مدارس زمن والدك، وجدّك، ونصل ما انقطع من حديثنا عنها:

---

(١) ثمرات الأوراق، ص ٣٦٩.
(٢) محاضرات الأدباء، ص ٥٠.

هذه المدارس، قد تكون امتدادا للمدرسة التي تكلّمنا عنها، وهي حلقات المساجد، التي ينقطع للتّدريس فيها رجال علماء في الدّروس الشرعيّة، يعلمون التّفسير والحديث والفقه والتّوحيد والمواريث والأصول، وكان هؤلاء هم سرج المجتمع، ولهم من الاحترام في أنفس النّاس، ما يدلّ على تقدير النّاس لحامل هذا العلم. وهم أهل لهذا لأنّ منهم القضاة، ومنهم المفتون، ومنهم من يلجأ إليهم النّاس لحلّ ما قد يقع بينهم من مشاكل. يضفي عليهم علمهم من الوقار، وحسن التصرّف، والمقدرة على الانصاف، وحبّ الخير، والسّعي له، والنّظرة العميقة، والنّزاهة المتناهية، ما يجعلهم مفخرة للمدينة التي يوجدون فيها.

أي بُنَيّ !

هذه لمحة خاطفة عن الشّباب منذ أن يولدوا حتى يدخلوا مرحلة الرجولة اختصرتها لك، ولم أترك مما تودّ أن تعرفه، أو تحبّه إلاّ ما قد يكون غاب

عن ذهني، أو ليس له من الأهمّيّة ما يجعلك تلتفت له، وقد أترك شيئا لأنّ فيه بعض ما يرضيك، عقابا لك لأنّك لا تقرأ إلا ما هو مسلّ ومريح، ولو كنت تقرأ بتمعّن ما هو مفيد بصرف النّظر عما إذا كان مسليّا أم لا، لذكرت لك بعض ما لم أذكره. مثل الحديث عن بعض ما يقوم به الشباب في سنّ المراهقة من الحرب، نعم الحرب، يا بُنَيّ، فمثلما يتصارع اثنان ويتعاركان، يقوم النّزاع بين حارتين، وتعلن الحرب، أجل تعلن الحرب. ولها أصول وقواعد. عندما تتقرر الحرب بين حيّين، يأتي مندوب من هؤلاء ومندوب من هؤلاء، ويتّفقان على نقط يراعيها الطرفان. يتّفقان على اليوم الذي تشنّ فيه الحرب أو على الأيام، والوقت المعيّن لشنّها، وغالبا ما تكون بعد العشاء، وعلى السّلاح الذي يستعمل، هل يقتصر على الأيدي، أو يسمح باستعمال الحصى، أو العُصِيّ، ويراعي الطّرفان ما يُتّفق عليه من شروط، ويضاف إلى الشّروط شرط أخير، وهو هل يُؤذَى الفرد من أحد الفريقين إذا

دخـل في غير الـوقت المحدد للحرب حيّ الفريق الآخر، أو تقتصر العداوة فقط على ساعات المعركة.

إنّهم، يا بُنَيّ، يرضعون لبان عادات آبائهم من الصّغر، وفي زمنهم الحرب لا مناص منها بين المدن، أو المنـاطق، أو بين الحـاضرة والبـاديـة. وحـرب الشّباب هذه التي تقوم بين الأحياء ما هي إلا تجارب لما سوف يخوضـه هؤلاء الشّباب في المستقبل، من حرب قوامها السّيف والرمح والرّصاص. ولعلك تلاحظ أنّ الاتّفـاق المتحضّر الـذي يجريه الصّغار ويتقنونه لا يتقنه الكبار. ولعلّ السّبب أنّه مع الكبار الأمر جدّ، وفيه موت أو حياة، وفيه نهب وسلب، أمّا مع الصّغار فالأمر في «متطرّف الرّيش» لا ينفذ إلى اللّحم. وشتّان بين الأمرين.

أظنّ الحديث عن العراك هذا أعجبك، وقد يعجبك أن تعلم أمرا قد لا يخص الحرب هذه وقـد يخصّهـا، ولكنّـه تصرف لأحـد

الشّباب ممن كان يحلو له أن يسهر بعد صلاة العشاء، ويسمر مع أصدقائه خارج البيت، ولكنّ والـده يرى أن من مصلحته أن ينام مبكـرا حتى ينهض مبكـرا، وفي هذا فائدة كبرى لصـحّتـه ونمـوّه. ولكنّـه، لقصر تفكـيره، يرى أنّ لذّة السمر مع الأصدقاء أهَمّ، فكان يحتال بعد أن يدخل مع والده إلى البيت، ويلجـأ إلى وسيلة ناجحـة في الخـروج منـه بعـد أن ينـام والده، وكانت المـشكلة في أنّ البـاب إذا فتـح «يصرّ»، ويحـدث صوتـا مزعجا يوقظ والده. فوجد طريقـة يتغلّب بها على هذه الصّعـوبـة. والأبواب، يا بُنَيّ، في الزّمن القديم تعمل من خشب الأثل، والباب يدور على دوّاسة في «الصّـايـر»، ويـوضع تحتها أحيانا خفّ بعير. هداه تفكيره إلى أن يبلل الخفّ، (ولن أخبرك كيف يبلّله إلا همسا في أذنك!) فوجد بذلـك أن الصّرير لا يحدث، فصار يخرج

باللّيل، ويسمر مع أصدقائه، ويعود دون أن يعلم به أحد.

وهـو نفسه، يا بُنَيّ، الشخص الذي لما كبر، صار يحتال على الفلاحين الدائنين له ليؤجل دفع الدين عندما يأتون عند صلاة العشاء، وهو أضمن وقت يفرغون فيه من عملهم ويجدونه، فيصلّون معه، وهناك من يحدّث عليهم من قبله، فيـطيـل الحـديث ليملّوا وينعسوا فينصرفون، لأنّهم يعملون أثناء النّهار عملا شاقّا، يبدؤونه قبل صلاة الصبح، ولا يستطيعون الاستمرار طويلا في السّهـر بعـد صلاة العشـاء، فيبـدؤون الانسحـاب الواحد تلو الآخر، وكان ينظر إلى القارئ ليرى إن كان بقي أحد، حتى لا يلتفت إليهم، وتلتقي الأعـين، فيفهّمـه القارئ باشارة منه بأنه بقى واحد، فيقول: «زِدْ لَهُ بصفحـة» فيستمـرّ في قراءة صفحة

تكـون في الغـالب كافية لأن ينسحب آخر «الديّانه»، وأصبحت كلمة «زد له بصفحة» مثلا. وهكذا، يا بُنَيّ، الذّكيّ في الصّغر قد يتطوّر معه ذكاؤه في الكبر.

واللّعب، يا بُنَيّ، كان هو سلوة الشّباب في تلك الأيام، مثلما هو كذلك في هذه الأيام، وكانت أيام اللّعب أحيـانـاً تتـداخل مع أوقات الجدّ، يدخل الواحد منهم مرحلة الجدّ وهو لم يقض وطره من حياة اللّعب والمرح، فيبقى في نفسه شيء من الحنين إلى المرح واللّعب، فينقل حياة المرح هذه معه وتخرج بطريقـة مقـالب وأمثالها، وهو أمر لا يخلو بعض النّاس من المرور به في زمانهم هذا.

ومن الأمور الجادّة التي يسرعون إلى الدّخول في مرحلتهـا، الـزّواج، فهم يزوّجون الشباب وهم صغـار، ويـرون أن في هذا فائدة، ولعلّ أوضح فائـدة أن يصبح الأب وابنه من جيل واحد، فلا يحدث بينهما الخلاف الذي يحصل بين جيلين، لعدم

فهم جيل الأب لجيل الابن، خاصّة في زماننا هذا الـذي اتّضح فيه اختلاف الزّمن عن الزّمن الذي قبله في مظاهره ومحتوياته.

بحث رجـل من الجيل قبل الماضي عن ابنـه، في أحـد الأيّـام قبل صلاة المغرب، فوجده يلعب فأخذه من ذراعه وقال له: «أما تستحي، اللّيلة زواجك، وأنت هنا تلعب مع أقـرانك». وأخذه بيده وأدخله البيت، وقـال له تغسّـل والبس ثوبـا غير ثوبـك. والابـن يسـتـفسر منـه عما يجب أن يعمله الشاب عندما يتزوج!!

وللشبـاب في ذلـك الـزّمن لعب منظم حسب مواسم معيّنـة، لا يدخـل موسم في موسم، ولا تدري كيف توصّلوا إلى هذا التّرتيب، إلّا أن يكون تبلور مع الزمن، وارتبط بعدّة اللعب وأدواته، وما قد يناسبها من حرّ أو برد.

في وقت من الأوقات تكون اللّعبة المسيطرة في

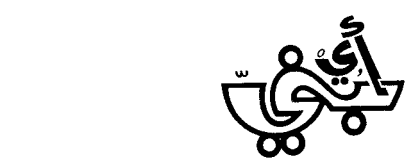

الأحيـاء هي «الـطّابَـة»، الكرة، ولم تكن في تلك الأيام الكرة بالصّورة التي هي عليها اليوم. كانت مصنـوعـة محليًّـا من الخرق، تصنعها الأمهّات أو يصنعها الأولاد أنفسهم، وهي بحجم كرة التّنس. لا تقفز بعيدا، ولا تسير على النّظام الذي تسير عليه الكرة اليوم. وأحيانا تقتصر على محاولة إصابة هدف ينصب لها، وأحيـانـا بحذفها إلى الجدار، وتلقّيها راجعة وإعادتها فورا إلى الجدار، وبعدد المرّات التي يفعـل بها ذلـك دون فترة انقـطاع يَغلِب المـرء أو يُغلَب، وقد تجد كرة من المطّاط طريقها إلى أيدي الشّباب، ولكنّها لا تلبث طويلا قبل أن تتمزق، ويعود الأولاد إلى كرة القماش.

وتستولي على وقت الشّباب في موسم آخر لعبة «الكعـابـة» في نجد و «الكبوش» في الحجاز وهي عظام المفصل في رجل الخروف. تنظّف من بواقي اللّحم فيها، وعند اللعب يوضع بعضها فوق بعض في داخل دائرة تحدّد في الأرض، ويقف الطّفل من بعيد ومعه واحد منها، أحياناً يوضع فيه ثقب يصبّ

obeikandi.com

فيه قليل من الرّصاص ليزيد في ثقله، حتى إذا أُرسل إليها وضربها أخرج أكبر عدد منها من الدّائرة، ثم يتحرك الشّاب من مكانه، ويقف في المكان الذي انتهى إليه «الصّول» المرصّص، ويعيد الكرّة ليخرج ما في «الخوطة»: الدّائرة إلى خارجها، وما يخرجه هو مكسبه، حتى ينتهي ما بداخلها أو يخفق مرة في إخراج ما أرسل «الصّول» عليه. وحينئذ يُسلّم العمل إلى منافسه. والواحدة من «حبّات اللّعب تسمّى «طَزْقَا» وهي ما يتسلط عليه «الصّول» ويضربه ويخرجه. وأحيانا يشترط في اللاّعب أن يقف وقفة عسرة، امعانا في جعل اللّعب صعبا.

وهناك موسم للعب «العجاوي» جمع «عجيّة» وهذا اسمها في نجد وهي «الدوّامة» واسمها في الحجاز «المداوين» جمع «مدوان» وفي نجد هي نوعان «عجيّة» وهي ما يلعبه الكبار، و «مغزل» وهو ما يلعبه الصغار. والعجيّة مدوّرة بشكل هرمي يثبت في طرفها المدبّب الدّقيق الرّفيع مسمار تدور

عليه عندما «تثبت»: أو ترمى على الأرض لتدور، بعد أن يدار عليها خيط يبدأ من أعلاها الدّقيق إلى أن ينتهي إلى أسفلها المنداح، وطريقة إرسالها بعد أن يدار عليها الخيط، وطريقة إدارة الخيط ونوع الخيط، كلها أمور تحتاج إلى دقّة، ويتحسّن العمل بها مع التجارب والممارسة. ويُعتنَى عناية خاصّة بتمليس المسمار الذي ستدور عليه، لأنّ هذا يزيد في ثباتها. ويحفر حفرة صغيرة في الأرض يوضع فيها بعض التّراب، وعندما ترسل «العجيّة» ترسل على أمل أن تكون في أقرب نقطة ممكنة من الحفرة، ولأنّه لا يتوقع أن تنزل في الحفرة مباشرة، وليس من المناسب أن تنزل من أوّل الأمر، والكاسب هو الذي يستطيع أن يدخلها الحفرة بأقلّ مجهود. والمجهود نوعان: أحدهما أن يدفعها بحافة يده، ضربة أشبه بضربة السّيف، أو إذا كانت قريبة من الحفرة ولا تحتاج إلى ذلك فيدخلها بنفخة من فمه. ويحسب الأمر على أساس: نفخة و «ندّة»، أو ندّة ونفختين، أو ندّتين ونفخة وهكذا. وبمجرد أن

تدخل الحفرة «تدمغ» أو يطبق عليها اللاعب يده بسرعة حتى لا «تنتق» من الحفرة، وتقفز منها، وليس هذا من مصلحة اللاّعب.

أما المغزل فهو لعبة الصّغير، لأنّه لا يحتاج إلى كبير فنّ، ومع هذا فهو أول الطريق للاعب هذه اللّعبة، يتعلم فيه لفّ الخيط و «ثبت المغزل»، ورميه مع الامساك في الوقت نفسه بطرف الحبل، فيهوي المغزل يدور بانتقاض الحبل من سابق لَفِّه، ويكمل الدّورة بعد أن يصل الأرض.

وهناك تعبيرات في هذه اللعبة تدلّ على ما يأتي منها من أفعال، فبجانب «الثّبت» و «الدّمغ» هناك «التّلعيس» وهو الأثر الذي يتركه المسمار على الأرض بعد الدّوران أطول مدّة ممكنة، وقد «تسهي» «العجيّة» بمعنى تغرق في دورانها إلى الحدّ الذي تظنّها معه واقفة لا تدور، وهذا مظهر من مظاهر الاتقان في «الثّبت» والحذف أو الارسال. وهناك «اللّقف»، وهو ممكن خاصّة عندما تسهي «العجيّة»

يأتي لاعبها و «يقحفها» أي يخطفها بطريقة خاصّة، لتدور باقي دورتها على راحة يده. وطول مدّة دورانها على يده يحدده مدى قدرته واستفادته من تجاربه، وطيب «العجيّة» وحسن صناعتها.

و «البعّة» لها موسم، وهي لعبة بسيطة ولكنّها مسلّية، وميزتها أنّها أحيانا تناسب الذي يسير في طريق طويلة. وهي عبارة عن خشبة طولها في حدود خمسة عشر سنتيمترا، «محذرب» طرفاها، ومسنّنان. حتى يكونا مرتفعين عن الأرض إذا وضعت عليها. وتضرب بعصى يحملها اللاّعب فتقفز البعّه في الهواء فيضربها في الاتّجاه الذي هو سائر فيه. وتحسب الضّربات وتقاس المسافة، ويغلب الغالب بزيادة الطّول الذي يزيد فيه عن منافسه.

وهناك «الدّنّانه» وهي دائرة من الحديد قد يكون قطرها ثلاثين سنتيمترا أو خمسين أو أكثر، يدحرجها الشّاب بواسطة قضيب هيّء طرفه لدفعها، فيستمرّ

سائـــرا فيهـا، وازنـاً لها عن أن تميـل أو تسقط، وبالتّدريب والتّمرين يستطيع اللّاعب أن يتقنها، واللّعب بها عبارة عن سباق يربح الواصل فيه إلى الهدف دون أن تفلت منه أو تسقط.

وهنـاك «أمّ خطوط» أو «بربر» وهي عبارة عن مستطيلات مخطّطة في الأرض، بعضها يتلو بعضا، وعددها إمّا خمسة أو ستة كلّ واحد منها له اسم. ويؤتى بقطعة صغيرة بمقدار حجم ثلاثة الأصابع أو الأربعة، مفرطحة، مربّعة، مذروبة الاركان، أو دائرية، تحذف في أوّل الأمر، في أقرب مستطيل، ويـرفع اللّاعب رجلا، ويقفز حاجلا بحيث تحطّ رجله الأخرى على القطعة، فإن لم ينجح ضاعت منه اللّعبة، فإن نجح فعليه، وبهذه الطريقة، أن يخرجهـا إلى خارج المستـطيـل، على أن لا تلمس رجله خط المستطيل، فإذا نجح رماها في المستطيل الثاني، ثم يدحرجها برجله، ويدفعها إلى المستطيل الأول إلى أن يخرجها إلى الخارج. وهكذا حتى يمرّ بجميع المستطيلات عائدا من الآخر إلى الأول ثم

يخرج. والناجح من يتم ذلك دون خطأ من إنزال رجله إلا في المكان المسموح به لذلك، وهناك خطّان، يرمز إليهما بخط النار، لأنّ المسافة عندهما بعيدة، والميزات عند التغلب عليها كثيرة.

ولا يجوز له أن تلمس قدمه الخطّ أو أن يخرج من المستطيلات إلّا بعد أن ينتهي من الأوّل عائداً، أو في خانة «الملينة» وهي الخانة التي تلي خط النار، وفي تحريكها بقدم واحدة إلى المكان المقصود صعوبة، وفي تفادي مجيئها على الخط صعوبة، وفي تفادي لمس الخط بالرّجل صعوبة، وفي إبقاء الرّجل مرفوعة، خاصّة في المراحل النّهائية، صعوبة. وهي رياضة للجسم مفيدة لما فيها من مجهود[1].

هذه بعض الألعاب التي تتماثل المناطق المختلفة في لعبها، وفي الحجاز لعبة لا يعرفها أهل نجد، وهي لعبة «الكبت»، وهي أقرب للعبة المبارزة في

(١) الأداة التي يلعبون بها في نجد قطعة صغيرة من ضلع البعير في الغالب تهذّب وتشذّب حتى لا تجرح الرجل. أما في الحجاز فهي شقفة من حجر رقيق مهذّب، والأغلب شقفة من فخار.

الحرب، يقف فريقان متقابلين، يخرج من أحدهما فرد كأنه يهجم على الفريق الثاني فإن لمس أحدهم ولم يمسكوه فالملموس يعتبر ميتا. وإن نجحوا في مسكه مع حذره فيعتبر ميتا. وهي لعبة مسلّية يلعبها الكبار والصّغار.

كما ترى، يا بُنَيّ، كان لديهم من الألعاب المسلّية ما يشغلهم، وقد اختاروها منوّعة حتى لا يتسرب إليهم الملل، ولم أذكر لك إلاّ بعضها مما يتّصل بالنّشاط الجسمي، وإلا فهناك مسلّيات أخرى مثل لعبة «الرجعة» «البذّه» ومثل «الطرّة» ومثل «إصفر وانخر» ومثل «عظيم لاح» و «الغمّاية» الخ، وربما تعرضت لها فيما بعد.

مادمنا يا بُنَيّ في الشّباب، وقلنا طرفا عن ألعابهم، أفلا تريد شيئا عمّا قيل في نموّهم ومراحله، وهو انتقال مريح من الحديث عن اللّعب إلى بعض أقوال السّابقين الجادّة. يُروى عن عمرو ابن العاص أنّه قال: «يتغيرّ الغلام لسبع، ويحتلم

لأربــع عشرة، ويتمُ خلقــه لإحــدى وعشرين، ويجتمع عقله لثمان وعشرين، وما بعد ذلك فتجارب[1].

هذه لمحة خاطفة، يا بُنَيّ، عن الأولاد منذ أن يولدوا إلى أن يبلغوا مبالغ الرّجال، والحديث عن الـرّجـال بعـد ذلك، وعمّا تفعله بهم الحياة، وعما يفعلونـه بها أمر يحتاج إلى حديث خاصّ به، يلمّ بمهنهم، ومعالجتهم لها، ويلمّ بأسفارهم، وحصد الحروب لهم، وإشقاء عوائلهم.

يكـبر الصّغـير وتكبر بعض عيوبه معه، وتكبر مزاياه، يفتقر ابن الغني، ويغنى ابن الفقير، وقد يبقى ابن الغني غنيّـا، وابن الفقـير فقيرا. تجتمع عائلتان وتقتربان بالزواج، وتفترق عوائل وتتبعثر بسبب الـزّواج، يرتحـل هذا عن أهله إلى مدينـة أخــرى، ويبقى هذا في مدينتــه. وهكـذا يبقى «دولاب» الحياة وعجلته في الدوران إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) المحاسن والمساوىء، ص ٣٦٨.

obeikandl.com

والآن حان الوقت لأن نتحدّث عن البنات، وإن كنّ داخلات في بعض ما ذكرنا، ونبدأ عنهنّ عندما بدأن يفترقن عن البنين. لم يكن هناك حرص كثير على تعليم البنت في الماضي، وفي المدن يوجد سيّدات يدرّسن القرآن الكريم، ولا يتعدّينه إلى غيره، وفي الغالب لا تكمّل البنت منه إلا قليلا، فيقطع عليها الزّواج ما نوت أن تكمّله، وهذا لا يعني أنه لا يوجد من يحفظن القرآن حتى لو تزوّجن. بل هناك، وهنّ قليلات جدا، من تواصل وتتفقه في الدّين، وإجادة الخطّ.

ألا تريدني، يا بُنَيّ، أن أقف هنا بين قسم البنين، وقسم البنات، وأقصّ عليك قصّة من التّراث، تتحدّث عن ابن وبنت، فيكون هذا صلة بين الحديثين الماضي والمقبل:

قال صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة:
قال أبو الحسن: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة، . . . ، فلا تقع عينها على أكلة

نفيسة إلّا خصّتني بها. فزوَّجتُها، وصار يجلس معي على المائدة ابن لي، فيبرز لي كفّا كأنها كرنافة (أصول كرب النّخلة) في ذراع كأنّها الكربة (أصل العسيب) فو الله إن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها[1].

إنّما أنا، يابُنَيَّ، راوية، ولا دخل لي فيما أروي، أبادر بهذا القول حتى لا تتّهمني بالتحيّز، وإن كانت هذه حال الرّجل مع ابنته وابنه فقد لا تكون حال غيره مثله، فالله خلق الخلق، ونوع طباعهم.

وليس صاحب القول الذي مرّ هو الوحيد في مدح البنات، فالذين يمدحونهنّ كثيرون، والمدح الآتي له ظرفه، فهو تهنئة بمولودة، فالمدح هنا يشتمّ منه رائحة تخفيف وقع الخبر على من توقّع ولادة ولد، ولكن رزقه الله بنتا. وخطاب التهنئة طويل

(١) الامتاع والمؤنسة، ٣/١٤.

obeikandl.com

سوف اجتزئ منه بعضه، وهو ما يلي:

أهلا وسهلا بعقيلة النّساء، وأمّ الأبناء، وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهار، المبشّرة بأخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون:

فلو كان النّساء كمثل هذي
لفضّلت النّساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

وإذا كانت العبارات يجمّلها الترادف ويوضّحها، والبيت لا يكمل إلا بشطريه، فسوف نوجد توءما يلي ما ذكرناه عن البنت، ولو وجدنا ثالثا لنصبنا فوق هذه الأثافي قدر مدح النّسوة، فلهنّ في أمر القدور حظّ وافر، أعانهنّ الله.

يقول عمارة بن عقيل، في شعر رقيق، يشرق فيه الحنو وحرارة العاطفة، وتبتسم فيه العبارات، وتضحك الكلمات، خاصة كلمتي «الأنيف

(١) زهرة الآداب، ص ٦٤.

الأكشم». لو عشتَ في زمن والدك في الماضي، يا بُنَيّ، لسمعت الصّغار يتحدثون عن «الطزقا الكشماء»، وهي أحد كعاب اللعب المتدنّية في قيمتها، لأن الزّمن في الغالب جارَ عليها، وجذّم أطرافها الناتئة. ولسمعت الكبار كثيرا، من باب التمليح، يصفون أنف الرّضيع «بالأفينس» تصغير أفنس، وكل طفل أفنس. وكلمة «ساطه» كلمة لها موسيقى في آذان جيلنا، لأنّها كلمة متداولة، وفي استعمالها ذكريات لجيلنا، فالأم تسوط «تحرّك» «مدودة»[1] البقرة، وتسوط «الدّويفة»[2]، وكثير من جيلنا سيقول: آه على الدّويفة، رحم الله زمانها. ولقد حاول بعضهم، بعد أن توفّرت النّعم أن يعيد طبخها، وهيأ لها كل أسباب الطّعم الغني اللّذيذ، بتكثير اللّحم، وتنويع الخضروات، إلاّ أنها لم تأت باللّذّة التي كانت تأتي بها في ذلك الزّمن، لأنّها فقدت عناصر مهمّة، فقدت الشّباب، والجوع،

(١) نوى التمر، يغلى حتى يلين، يقدّم للبقرة، ويعتقد أنه مدرّ للحليب.

(٢) أقرب وصف لها الحساء، أو الشربة.

وهــذان عنصران مهــمّان للشّهيّـة، والاستمتـاع بالأكل. وقد تسمع من أحد الكبار كلمة «هؤلاء العيـال ساطـوا المكان» أو «حاسوه»، بمعنى أنهم قلبوا رأسه على عقبه. هذه الكلمات لها صدى، ولها نغمـة خاصـة، يا بُنَيّ، عند جيلنا. والآن اسمع الأبيات يقولها عمارة بن عقيل، والد البنت:

حبّك ياذات الأنيف الأكشـم
حبّ تسـاقـاه مشاش أعظمي
ودبّ بين كبــدي ومحـزمــي
وســاطـه الله بلحـمي ودمـي
فليس بالمـذاق ولا المـكـتّـم
ولا الــذي إن يتقــادم يسـأم
لقد نزلت من فؤادي فاعلمي
منـزلـة الشيء المحب المكرم[1]

وحتى لا نترك الأبناء، يا بُنَيّ، دون أبيات شعر (جبر خاطر) أسوق إليك هذه الأبيات (لاحظ، يا

(١) الأمتاع والمؤانسة، ١/٢٢٢.

بُنَيّ، «أسوق» هذه، كأني أسوق إليك قطيعا من المواشي، ولعلها إبل، أو مئات من الأغنام، وبصرف النظر عن هذا التعبير، وما فيه من استعارة، فالأبيات جميلة، وخفيفة ظلّ، وراقصة، تتناسب مع الظّرف الذي قيلت فيه، إحفظها جيدا، فسوف تحتاج لها لابنك، وابن ابنك، إن شاء الله تعالى، وهي لأعرابية، ترقّص ابنها:

كأنّما ريح الولد ريح الخزامَى بالبلد
أهكذا كل ولد أم لم يلد قبلي أحد[1]

والبنت في بعض المجتمعات قبل أن «تتخفّر»، وتحتجب عن الغريبين عنها، ومن هو غير محرم لها، يُدار بها، في زفّة، في حيّها وبعض الأحياء المجاورة، وكأنّ هذه إشارة إلى بلوغها سنّا يؤهّلها للزّواج بعد أربع أو خمس سنوات من الزفّة. فهذا تذكير لمن يهمّه الأمر الآن أو فيما بعد. وتبقى البنت

(١) صاحب المحاسن، خلاف المتواتر، ينسبها لأعرابي.
المحاسن والمساوئ، ص ٥٤٦. ولمزيد مما ورد عن الابناء راجع كتاب نزهة الالباء في طبقات الادباء، لابن الانباري، ص ١٣٥، وما بعدها.

في البيت تساعد أمّها وتتعلّم منها أصول الطّبخ، وتتـدرّب على الخياطة التي تعتمد على جهد اليد، وتتبارى البنات في إتقان خبز الخبز في التّنور. لأنه فنّ يحتاج إلى مران ومواظبة.

وعلى العموم مؤهّلات البنت للزواج من أهمّها إجادة أعمال البيت من طبخ وكنس، وترتيب، أما التّعليم في ذلك الزّمن فلم يكن مهمّاً البتّة. وتبدأ البنت بمساعدة أمّها في البيت منذ الصغر، وتتحمّل جزءً كبيراً منه تحت إشراف أمّها، وقد يكون من بين ذلك تكسير الحطب الذي يلعب دوراً كبيراً في حياة النّـاس. وجلب الماء إن كانت العائلة فقيرة عمل يومي، لأنّ الماء لا يُستغنى عنه، ويُستهلك في كل الأوقات. ولهذا فالبنت لا يحزن أهلها عند ولادتها، وإن كانوا يفرحون بالولد.

ومشط شعر البنت يأخذ وقتا، وتطويل الشّعر والعناية به مجال تفاخر بين البنات، وإذا لم يكن بين ربّات البيت من لديها الوقت والجهد لهذا، فهناك

المشّاطات المعروفات بإتقانهنّ هذا العمل، ويأخذن عليه مكافأة مجزية، و «الفَرقة» التي تقسم شعر الرأس قسمين هي القاعدة في مشط الشّعر، تأتي «الجدايل» الضّفائر بعدها على جانبي الرأس، بعد أن يشبع «بالحنّا» أو «الوردة» وتبقى «الجدائل»، الضّفائر، أيّاما قبل أن تُنقض وتعاد من جديد.

ولا تخرج البنت الغنيّة من البيت بعد أن «تخفّر» إلاّ بعد الزّواج، وإذا اضطرّت للخروج فتخرج مع أهلها أو محرم لها في اللّيل. ولا يراها في البيت إلاّ أقاربها أو من يختلط من النّساء بعائلتها. وتجد من تريد خطبتها صعوبة في رؤيتها بعد أن بلغت، وأصبحت في سنّ الزواج، ولا بدّ من حيلة متقنة من الخاطبة ليتمّ لها مرادها في الرؤية، وأحيانا يتيحون ذلك الأهل بطريقة لا تشعر بها البنت.
والزّواج عادة يتم بطريقة مبسّطة: إذا اتّفق الطّرفان على إتمام الزّواج، يرسل أهل الزّوج «الجهاز» وهو عبارة عن أثاث كامل تقريبا، ويحاولون إرساله في

الليـل ما أمكن حتى لا يصير عرضة لمتابعة أعين المتطفّلين. ويكون عماده فراشاً، وبعض الأقمشة.

والحفل للعرس هو للنّساء والأطفال، تدار فيه كؤوس اللّيمون أو الاترنج. ويجتمع الرّجال بعد صلاة العشـاء في قهـوة بيت والـد العروس لفترة قصيرة، ثم يأخذ والد العروس العريس إلى حيث زوجته، وتكون في الغالب في غرفة في الطابق الثّاني من البيت، وقد قسمت عدة أقسام «بأردية» ملايات تَجعـل الغـرفـة عدّة أقسـام. والهدف منها اختفاء العـروس في أيّ منهـا، والخـروج من واحدة إلى أخـرى، والعـريس يبحث عنهـا، وهي تختفي، ويصبـح الأمر مطاردة حتى يجدها. و «الملاك» أو «الملكة» الأملاك عادة يتم في تلك اللّيلة بعد صلاة العشاء في قهوة بيت والد العروس. وهناك «بيّاعة» أو «ربعيّة» تقوم على خدمة العروس والعريس في تلك اللّيلة، فهي تسهر في غرفة قريبا منهما أو تنام في مكان قريب، وهي التي تخدم العروس في تلك اللّيلة وتقـدّم للعريس طعام الافطار في الصّباح.

وتصبّ القهوة والشّاهي للعريس عندما تذهب العروس للسّلام على أهلها في الصّباح في جزء آخر من البيت. و «الربعيّة» أو «البيّاعة» تكون عادة من الخادمات القريبات من العروس، تعرفها منذ الصّغر، وقد تكون هي التي ولّدتها.

ويبقى العريس مع زوجته عند أهلها سبعة أيام، وقد تقلّ قليلا، قبل أن «ترحل» إلى أهله، أو بيته إذا كان لا أهل له، أو مستقلّا عن أهله في بيت خاصّ به، وقد تنتقل إلى بيت فيه زوجة أولى، وقد تكون في بيت خاصّ بها، فلا تكون مع الزوجة الأولى في بيت واحد. والزوج في الأيام السّبعة التي يقضيها في بيت أهلها معها يكون محلّ الرّعاية التّامة. يخرج في الضّحى إلى السّوق ويزور أهله، وبعد صلاة الظّهر أو قبلها يعود إلى البيت، وبعد الظّهر يكون مع والد العروس أو مع أخيها في قهوة البيت حتى أذان العصر، و «يفيض» بعد صلاة العصر، ويمرّ بالسّوق وقد يجلس عند أحد أصحاب الدّكاكين الذين يعرفهم، حتى يحين وقت

وجبة العشاء قبل أذان المغرب، ثم يذهب إلى الصّلاة، وقد لا يعود إلى البيت إلّا بعد صلاة العشاء.

والعادة أن يولم والد العروس لأهله وأصحابه وأهل العريس ومن يرغبون دعوته، في عصر اليوم التالي للزّواج. ويولم العريس بعد الرّحيل في بيته. ولا يختلف الأمر بين زواج وزواج أو تصرّف عريس وعريس، إلّا في بعض التفاصيل التي لا تلمس الجوهر. وتأخذ العروس وقتا قبل أن تزور أهلها.

والطّرائف حول الزواج في الماضي قد لا تكون كلّها مما يمكن أن يدوّن، وقد مرّ بك قصّة الذي أخذه والده من الشّارع وهو يلعب، في حين أنّ زواجه كان بعد صلاة عشاء ذلك اليوم. ومما يُقصّ في ذلك الزمّان عن الزّواج أن أحد العرسان سأله «المملِّك» عما إذا كان يقبل الزواج من فلانه، فكان رده:

«إذن لماذا تركت أمي تروس بدالي». هذا

يدل على أنه لم يترك عمله المهم في الحقل إلا لهذا الأمر، فكيف غاب عن الشّيخ هذا الأمر، مما أوجب سؤاله!!

وآخر على نمط هذا عندما سأله الذي جاء ليعقد لهما الزّواج وقال له: «هل تقبل الزّواج من فلانه؟ ، قال العريس: «أفّ» دليل التلهّف، وأنّ الأمر لا يوجب السؤال فلم يملك نفسه المملّك من أن يهمس لمن بجانبه قائلا: «لم أعلم أني أملكّ ثورا». لأنّ كلمة «أفّ» صوت يخرجه الثّور من أنفه عندما يربض من التّعب، أو يُؤذَى فيهيج.

ولعلّك تتطلّع، يا بُنَيّ، إلى شيء عن الزّواج: قصّة أو ما يماثلها وقد لا يكون ما يتداوله العامّه مناسبا للتّدوين، ولأنّ حديثنا كان عن الزّواج في القديم القريب، فمن العدل أن «نَعدل» الكفّة، ونتحدّث عن شيء يتصل بالزّواج في القديم البعيد، وأرجو أن يكون مقبولا منك، وأن تحفظه، فهو يتسحق ذلك:

حدّث رجل من بني ذهل بن ثعلبة قال :

شهدت شبيب بن شيبه بن الأهتم، وهو يخطب إلى رجل من الأعراب بعض حرمه، وطوّل في خطبة النّكاح، وكان للأعرابي حاجة يخاف أن تفوته، فاعترض الأعرابيُّ على إطالة شبيب للخطبة، وقال له: «ما هذا؟ إنّ الكلام ليس للمتكلم المكثر، ولكن للمقلّ المصيب. وأنا أقول: الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد، سيّد المرسلين، وخاتم النبيّين. أمّا بعد: فقد أدليت بقرابة حقّا، وعظّمت مرغبا، فقولك مسموع، وحبلك موصول، وبَذْلك مقبول، وقد زوّجناك صاحبتك على اسم الله تعالى»[1].

هذا ما ورد عن خطبة النّكاح، وهي مقدّمة الزّواج، فاسمع شيئا عن خطوة تالية، ولعلها قيلت

(١) نزهة الألباء، ص ١٤٤ .

للبنت قبل مغادرة العروس بيت أهلها، راحلةً إلى بيت زوجها:

كانت نساء العرب يعلّمن بناتهن اختبار الأزواج، تقول المرأة لابنتها: اختبري زوجك قبل الاقدام والجرأة عليه، وانزعي زجّ رمحه، فإن سكت على ذلك فقطّعي اللّحم على ترسه، فإن سكت فكسّري العظام بسيفه، فإن صبر فاجعلي الإكاف (البرذعه) على ظهره فامتطيه، فإنّه حمارك[1].

وحتى لا ندخل فيما يقال عن «الحموات» وعدائهنّ للرّجل، وافساد العلاقة بين بناتهن وأزواجهن، نعدل الكفّة هنا بنقل ما روي عن أمٍّ عاقل، توصي ابنتها، وهي وصيّة تكتب، كما يقال، بماء الذهب، لرجاحة العقل فيها، وحسن المنطق، والإحاطة بأسباب سعادة الزّوجة. ومن حسن الحظّ

(١) المراح، ص ٣٥٥.

أنّ هذه النّصيحة هي المشهورة. أما الأولى فلا يعرفها إلا أناس قليلون:

أي بنيّه! إنّك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وخلّفت العشّ الذي فيه درجت، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فاحملي عنّي خصالا عشرا، تكن لك ذخرا:

اصحبيه بالقناعة، وعاشريه بحسن السّمع والطاعة، وتعهّدي مواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشمّ منك إلا أطيب ريح، واعرفي وقت طعامه، واهدئي عند منامه، فانّ حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

ثم اتّقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان تَرحا، والاكتئاب عنده إن كان فَرحا، فإنّ الَخصلة الأولى من التّقصير، والثّانية من التكدير. وكوني أشدّ النّاس له إعظاما، يكن أشدّهم لك إكراما. واعلمي أنّك لا

obeikandi.com

تصلين إلى ما تحبّين حتى تؤثري رضاه على رضـــاك، وهـواه على هواك، فيـما أحببت وكرهت، والله يخيرّ لك.

أظنّ أنّك توافقني على أن ما قدمنا في هذا المجال كاف، وأي طلب منك لزيادة تضاف إليه تدخل في باب الـطّمـع، وفي هذا الباب عندي لك قصتان أحداهما أبلغ من الثّانية في الطمع، وستكونان نهاية ما سأقوله في هذا الباب، هذا ان وافقت، وإلا زدتك.

دخل أزهر السمّان على الخليفة أبي جعفر المنصور فشكا إليه الحاجة،وسوء حاله، فأمر له بألف درهم. وقال له: «يا أزهر لا تأتنا في حاجـة أبـدا. قال أزهـر: «أفعـل يا أمـير المؤمنـين». فلمّا كان بعـد مدّة قصيرة عاد، فقـــال له الخليفـة: «مـا حاجتـك؟» قال: أزهـر: «جئت لأدعـو لأمير المؤمنين». قال الخليفة: «بل أتيتنا لمثل ما أتيت». فأمر له

بألف درهم، وقال: «يا أزهر، لا تأتنا ثالثة، فلا حاجة لنا بدعائك». قال أزهر: «نعم»، فلم يلبث أن عاد، فقال له الخليفة: «يا أزهر، ما جاء بك؟، قال أزهر: «دعاءٌ كنت سمعته منك أُحِبّ أن آخذه عنك». فقال الخليفة: «لا تردّده فإنه غير مستجاب، وقد دعوت به الله، جلّ وعزّ، أن يريحني من رؤيتك، فلم يفعل»[1].

وقصة طمع أخرى، فيها من التدرّج في الأخذ ما في الأولى:

دخل أبو دلامة على الخليفة المنصور، فقال: «يا أمير المؤمنين تأمر لي بكلب صيد؟. قال: «اعطوه». قال أبو دلامة: «كلب بلا صقر؟» قال: «اعطوه صقرا». قال أبو دلامة: «كلب وصقر بلا صقّار؟» قال: «اعطوه غلاما صقّاراً». قال أبو

(١) المحاسن، ص ٥٨٦.

دلامـة: «فلابدّ لهم من دار» قال: «اعطوه داراً» قال: «فمن أيّ شيء يعيشون؟» قال: «قـد أقـطعتـك أربعمئة جريب، منها مئتا جريب عامـر، ومئتـان غامـر». قال أبـو دلامة: «وما الغامر؟» قال: «الخراب». قال أبـو دلامـة: «فـأنـا أقـطعتك أربعة آلاف جريب بالدّهناء غامرة». قال الخليفة: «فقد جعلتها كلّها عامرة، فهل بقي لك شيء؟». قال أبو دلامة: «نعم، تدعني أقبل يدك». قال: «ليس إلى ذلـك سبيـل». فقـال أبـو دلامة: «ما منعتني شيئا أهون على عيالي من هذا»[1].

قلت قبل قليل إنّ هذا آخر ما نويت أن أحدّثك به في هذا الشأن، هذا إن اكتفيت، وإلّا زدتك. وقد تقول بسهولة ويسر، ودون تفكير وتروّ: زدني!

(١) المحاسن، ص ٥٨٧.

معتمدا على أنّ الزيادة ستستمر في قصّ القصص الممتع، ولم يخطر ببالك أنيّ قد أعمد إلى شيء يحتاج هضمه إلى طحن الأسنان، ويحتاج استيعاب معانيه، وتدبّر مراميه، إلى كدّ الذّهن وشحذه، وتبصّر العقل وتركيزه، وهذه العجلة منك في الحكم، وهذا القفز إلى النّتائج، قريب إلى ما عهدته منك من التسرّع في الأجابة، والعجلة في الرّد عند سؤالك، ولا بد من معالجتك عن هذا، وتطبيبك عن الوقوع فيه، وتعويدك التروّى، وتجْيب فضائله إليك. لهذا سوف أعمد إلى غير القصص مما يحتاج استيعابه إلى تفكير عميق، وتملّ متمهّل. ولا شك أنّك سوف تجد في هذا فائدة عظمى، ومزيّة فضلى، إذا تبصرت فيما سأقوله لك، والمهمّ أن تصبر على تتابع الأفكار عن هذا الأمر، ولن أحرمك في ثنايا حديثي من بعض ما يروّح عن ذهنك، ويدخل السّرور إلى نفسك، والبهجة إلى صدرك، والغبطة إلى قلبك، ويبعد عنك الملل، فإلى ذلك والله المستعان، ومنه التّوفيق.

ستجد - يا بُنَيّ - بالتّجربة الطويلة، عندما يمتدّ بك العمر إن شاء الله، أنّ هناك أربعة أمور لها نتائج محتّمة، وقد يكون سبب ذلك أنّ بينها من الوشائج الروحيّة القويّة، والصّلات الخفيّة ما يجعل الحدث فيها والنّتيجة متصلين. ما عليك - يا بُنَيّ - إلاّ أن تفتح عينيك جيّدا، وتشحذ ذاكرتك، وتعمل عقلك، وسوف تجد صحّة ذلك، وتراه واضحا أمامك، فيعجبك، ويدهشك، ويطربك.

أحد هذه الأمور الأربعة: «النيّة» التي تسبق العمل، أو القول، ومحلها القلب، مخزن الأسرار، ومستكنّ الخواطر، ولا عبرة بما يظهره المرء أمام قوله وعمله مما قد يكون أخفى خلفه حقيقة ما يضمر. وقد قال الرّسول ﷺ عن النيّات: «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكل امرئ ما نوى» إلى آخر ما جاء في هذا الحديث الجامع من تفصيل أنت تعرفه جيدا، لأنّك درسته في المرحلة الأبتدائية، وليس هناك تلميذ في المملكة العربيّة السعوديّة لا يعرفه، ولعلّ هذا الحديث من أول ما يعرفه الدّارس في

المملكـة . وأهميّتـه تعـطيـه هذه المنزلة من المعرفة المبكّرة، والألمام الجيّد المتمكّن، فقد حظى باجماع العلماء على صحّته، وبما لا يكاد يماثله حديث آخر في قوة السّند، وتعدّد الورود في الصّحاح .

وأهميـة النيّة ـ يا بُنَيّ ـ تأتي أيضاً من أنها الأمر الذي يبقى بين العبد وربّه، مهما أظهر المرء للنّاس، وزوّق ودلّس، ومهما دار واحتال، وأوهم بما يظهر، وما ينشر بينهم، فالحقيقة التي في نفسه تبقى معروفة لخالقه، والانسان يعلم هذا حقّ العلم، ويبقى في نفسـه من اخفـائها إذا كانت النيّة سيئة ما يصبح مصـدرا لقلقه، ومنبعا لألم ضميره، ومجلب راحة وطمـأنينـة إذا تطابق الظّاهر مع الباطن، أو كان الأخفاء لوجه الله الكريم(١).

كان آباؤنا ـ يا بُنَيّ ـ يقولون : «أَعطى الله فلانا على قدر نيّته»، إذا تبيّن لهم أن نيّته كانت حسنة،

(١) قال ابن السماك لأصحاب الصوف ممن يلبسون هذه الثّياب زهداً : والله لئن كان لباسكم وفقا لسرائركم لقد احببتم أن يّطلع عليها النّاس، وإن كان مخالفا لها لقد هلكتم . العقد الفريد، ٢/٣٧٣ ، وتأديب الناشئين ١٧٣ .

obeikandi.com

وجاءت النتيجة حسنة. ويقولونها كذلك لمن ناله شر، إذا اكتشفوا أنّ ذلك بسبب نيّته السيئة، المعلنة من أوّل الأمر استهتارا، أو كشف مخبؤها بعد ذلك. وكانوا يقولون: «النيّة مطيّة»، أي دابّة توصل صاحبها إلى ما قصده، إن خيرا فخير، وإن شراً فشر. وكانوا لذلك، يحرصون على إضمار حسن النيّة، أو اظهارها مطابقة للعمل خوفا من مغبة شرّها، وطمعا في جني خيرها، لأنّهم وجدوا بالتّجربة سرعة ما تأتي به النيّة، وما يحصدونه منها حسب منجل الحصد. وقد تأكّدوا من هذه النتيجة بوجهيها بعد طول مُراقبة، وحسن تدبّر، وعمق في الأستقصاء والتّتبع والتّفكير، وبهرهم ما خرجوا به بعد ذلك من صدق ما توقعوه، وصحة ما لاحظوه، رأوا صاحب نيّة طيّبة، تزدهر تجارته أو زراعته أو صناعته رغم ما قد يبدو في أعماله من سذاجة ظاهرة، وسطحيّة واضحة، وغفلة متناهية أحيانا. ورأوا آخر يخفق رغم دهائه، وعمق تفكيره، وبعد مكره، وتفنّنه في حيله، وتهيؤ أسباب النّجاح، في

الظّاهر، فيما يزاوله، ولا يجدون سببا لنجاح هذا رغم غياب مقوّمات النّجاح عنه، وإخفاق ذاك رغم توفّر أسباب النّجاح له، إلّا ما قد يكتشفونه من حسن نيّة، وصدق سريرة امتاز بها هذا تجاه من يتعامل معهم، واخلاصه إيّاها مع الله ولله، وسوء نيّة ذاك وعدم اخلاصه النيّة، وتصرّفه كأن الله لا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور، تعالى الله عن هذا علوّا كبيرا.

لهذا ـ يا بُنَيّ ـ كانوا يشدّدون في تربيتهم لأولادهم على تعليمهم وجوب صفاء النيّة، واخلاصهم أيّاها لله، وجعله رقيبا على ما يظهرون ويبطنون، والحرص على أن تتماشى النيّة مع العمل، ويبصّرونهم بالفوائد والعواقب، وسرعة حصد النّتيجة في كلا الحالين. فكان مجتمعهم ـ يا بُنَيّ ـ سالما من كثير من الآفات التّي تجلبها النيّة السّيئة، مما جعل معيشتهم تتّسم بالاطمئنان والسّلام نسبيّا.

ولعلّه مما يفيدك أن تحفظ بعض الشّعر الوارد في حسن ما يبطنه الانسان ويُسِرّه، ولا أحتاج أن أعيد ما سبق أن قلتُه لك وكرّرته عن فوائد حفظ الأشعار خاصّة في الحكم، يقول أعرابي[1].

وإذا أظهرت أمرا حسنا فليكن أحسن منه ماتسرّ
فمُسِرّ الخير موسوم به ومُسِرّ الشّر موسوم بشرّ

والأبيات صريحة فيما قلناه، وترسم بوضوح ما يدور في ذهن الشّاعر في هذا الأمر.

وصورة أخرى تمثل الجانب المختلف ينطق بها مالك بن دينار. وقد تكلّم مالك بن دينار يوما، فأبكى أصحابه، من قوّة تأثير وعظِه، ثم افتقد مصحفه، فنظر إلى أصحابه، وكلّهم يبكي، فقال: ويحكم! كلّكم يبكي فمن أخذ هذا المصحف[2]

والأمر الثاني - يا بُنَيّ - فيما يجب الحذر منه، واتّقاؤه: الشّماتة بالنّاس، أو «الطِّنزة» أو «المُعايبة»

(١) العقد الفريد، جـ ٣، ص ٤٤٢.
(٢) العقد الفريد، ٢/٢٢٨.

كما تسمى أحيانا، وهي أن تعيب شخصا بما ابتُلي به، من مصيبة تنزل به، أو عيب خلقي فيه، لا يد له فيه، وإنّما ابتلاه الله به لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، فالأعرج لم يختر أن يكون أعرجا، والأعور ابتلي بفقد عينه مرغما، والأصمّ لو خيّر لم يكن ليُفضِل فقد السّمع على وجوده، وهكذا في كلّ عاهة، ويكفي ما يمرّ بصاحب العاهة في كلّ يوم مما يذكّره بهذا النّقص، فإذا جئت أنت، وفتحت عليه بابا جديدا، يذكّره بعيبه، فمع اعتراضك على خلق الله، وتدبيره، جرحت أحد خلقه، وقد يكون عند الله وجيها، فيبتليك الله بما عبته به، وقد يصبح عيبك يزيدعن عيبه بدرجات. ابتلاء الله من يعيب ما في غيره من نقص يأتي سريعا كما أثبته التدبرّ، وأكّدته المراقبة الدّقيقة. وصغار السّنّ والشّبان عندهم ولع - يا بُنَيّ - بهذا لجهلهم بنتائجه، والشّيطان يجد في حبّهم لهذا العمل مطيّة سهلة يركبها، ويرجف بها عليهم، ويستخفّهم فيها، ويرسم لهم صورا براقة، تعميهم عما فيها من النّقائص، وما تحدثه من الآلام والمآسي. والمثل

العامّي يقول: «لا تِطنّز بأخيك يعافيه الله ويبتليك»[1].

والأمر الثالث ـ يا بُنَيّ ـ معاملة الوالدين، فمن أحسن معاملتهما وجد هذا سريعا في معاملة أولاده له، يكاد يكون ذلك حذو القذّة بالقذّة، فإن أساء إلى أبيه ـ نسأل الله السلامة ـ أساء إليه أبناؤه، في وقت هو في أشدّ الحاجة إلى الرّعاية والعناية به، لكبر سنّه، أو لعجزه، أو لمرضه، ولعلك تذكر قصّة الرجل العاق ـ وقانا الله وإياك من العقوق ـ الذي جرّ والده من رجله في ساعة غضب، وضيق عطن، وقلة تحمّل مسافة معيّنة من الشّارع، فلمّا بلغ حداً معيّنا منه نبهّه الوالد المجرور بأن يقف عند هذا الحد. لأنّه الحدّ الذي جرّ هو والده إليه، وإنه إن زاد عن هذا زاد ابنه عليه في المستقبل[2].

(١) يقول المتنبي:

وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني ... عيرتهم، فلقيت فيه ما لقوا

وهو من قصيدته التي مطلعها:

أرق على أرق ومثلي يأرق ... وجوًى يزيد، وعبرة تترقرق

(٢) ان لم تخنّي الذاكرة فهي واردة في فيض الخاطر لابن الجوزي، على أيّ حال مثلها وارد في نشوار المحاضرة ٢٠١/٢ وجاء في هامشة عن مرجليوت بأنها أخذت من كتاب الأخلاف لارسطاطاليس.

obeikandl.com

ومثـل هذه القصّة قصّة رجل ملّ خدمة والده الـطاعن في السنّ، وتعب من رعايته، وضاق من نفقته عليه، فحمله في ساعة تذمّر وحنق، ووضعه في بستـان على حين غفلة من أهل هذا البستان، وسافر إلى بلدة بعيدة. ومرّ الزمن، ودارت الأيام، وشاخ الشّاب، وضاق به ابنه ذرعا، فحمله، ورماه في الصحـراء، طعاما للذئاب، وعرضة للهلاك، فزاد ابنه عليه عما كان فعله هو مع والده.

ورحم الله رجلا كاد أن يقع في مثل هذه الرذيلة، إلا أنّ الله تداركه بامرأته العاقل، التي جعل الله لها من فكرها وتدبّرها وصلاحها ما كان سببا في تفادي وقوع عمل هذا المنكر، وهو ما كاد هذا الرجل أن يقدم عليه مع والده:

كانـوا في سفـرتهم أربعـة: رجل وامرأته وابنه ووالده، ولم يكن بعيرهم ليحملهم جميعا، ولم تكن مؤونتهم لتكفيهم، فقـرّر الـرجـل أن يتخلّى عن والده في الصّحراء، فقالت له زوجته: «إن تركته فاتركْ ابنك معه».

obeikandl.com

وأصرّت على هذا الشّرط، ولم يكن ليفعل ما أراد أن يفعله دون رضاها، حتى لا تفضحه أمام أهله وأهلها، وقبيلته وقبيلتها، فاضطّر أن يتخلى عن فكرته، ويتراجع عن ارتكاب جريمته، بعد أن ذكّرته زوجته بأنّ ابنه إذا كبر لا محالة فاعل به ما فعله هو بأبيه، فكانت بهذا خيرا منه، وسببا في إبعاده عن الوقوع في شرّ مستطير، كان سوف يلاحقه ليل نهار حتى مماته. والله أعلم ما كان سينتظره بعد مماته من العذاب الشّديد.

فمن التّجربة المتكرّرة - يا بُنَيّ - إن برًّا وإن عقوقا، ومن المُشاهَد، إن ماضياً وإن حاضراً، وجد انتظام قاعدة معاملة الأبن لوالده بمثل ما عامل الوالد به أباه، والقصص في هذا تكاد لا تحصى عن الأبن البار أو الأبن العاقّ.

ولعلّك تذكر - يا بُنَيّ - قصّة الرّجل الذي كان بارّا بوالده، فلم يترك أمرا مريحا إلاّ أقدم عليه، مهما كلفّه الأمر، ولا وسيلة تمنع عنه الأذى والنّصب إلاّ

سارع إليها، مهما أجهده السّعي، وأضناه الجهد، وكلّفه ذلك من مال. كان برّه به وافيا، وَحَدَبه وعطفه عليه مقدّما على كل شيء مهمّ في حياته. ودارت الأيام، وأصبح الابن أبا، وكبر في السنّ، وقلّ جهده، واحتاج إلى رعاية ابنه ومساعدته، فوجد في ابنه البار الحنون ما سبق أن زرعه في والده، مستويا على سوقه، مهيأ للحصد. لقد وجد من عناية ابنه به ما فاق عنايته بأبيه، لأن ابنه تنبّه إلى أمر يريح والده، ويبعد عنه الأذى، لم يتنبّه الاب له مع والده، وعزّ عليه أن فاته هذا البرّ بأبيه، وهو من حرص على توفير كلّ شيء يريحه، فدمعت عين الوالد، ولاحظ ذلك ابنه، وخشي أن يكون قد قصّر في حق والده، وذعر من دمعة والده وأجفل، وسأل أباه عن أسباب بكائه، فقال له أبكي مما فعلته الآن بي مما فاتني أن أقوم به تجاه والدي، وكان عملا نبيلا حقا، أبعد أذى حرارة الأرض عن جزء رقيق من جسمه وهو يتوضأ، وقال الأب إن هذا البرّ

الذي وفّقك الله إليه لم أتنبّه له مع والدي، وقد فاتني فعله.

وهكـذا ـ يا بُنَيّ ـ جنت اليد ما حصدت: في الدنيا راحة في البال، وطمأنينة في النفس، وامتلاء بالتقوى، وفي الآخرة ـ إن شاء الله ـ ما هو أكثر وأوفى.

تَصرُّفُ الابن مع والده ـ يا بُنَيّ ـ، وتقليب أوجه الأمور للبحث عما يريح ويسعد، ما هو إلا توفيق من الله: عرف النيّة فأعطى بقدرها، بل هو الكريم الذي إذا رضي أعطى فأغدق وأنعم.

والأمر الرابع ـ يا بُنَيّ ـ الظّلم، والظّلم ـ يا بُنَيّ ـ ظلمات: ظلمات لا تحدّها حدود، ظلمة في النّفس، وظلمة في العقل، وظلمة في التّصرف، وظلمة في المـردود، مهـما أظهـر الـظّالم للنّـاس من نور على السّطح، فداخله مظلم، وبئس لمن سكنه الظلام.

كان آبـاؤنا ـ يا بُنَيّ ـ يشدّدون على أمر الظّلم، ويؤكّدون على وجوب اجتنابه، والبعد عن شبهات

الـوقـوع فيـه، ويفضّلون أن يظلمـوا أنفسهم في الحقوق عن أن يظلموا أحداً، أو أن يحوموا حول حمى الظّلم، لأنّهم يعرفون سرعة نزول عاقبة الظّلم بالظّالم، ويعرفون أنّ الله مع المظلوم دائماً، لا يتخلّى عنه، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب. وبالتّجربة وجدوا أنّ الله، وإن أمهل الظّالم لفترة، فإنّه لا يهمله، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر. ولهذا كانـوا ينـشّؤون أولادهم على حبّ الانصـاف، ويخـوّفـونهم مغبّـة الظّلم والعدوان، ويروون لهم القصص المفزعة التي تُري نهاية الظّالم، سواء كان ذلك الظّلم من شاب لشاب، أو من امرأة لأمرأة، أو من رجل لرجل، أو من هذا لهذه، أو من هذه لهذا، وكانوا يشدّدون أيضاً، في القصص، على ما يتوقّع من ظلم امرأة الأب لأبناء زوجها الذين ماتت أمّهم أو طلّقت، ويـرسمـون صورا بشعة لنتائج الـظّلم هذا، ويـظهرون أنّ الزوجة الظّالمة لأبناء ضرّتهـا لا ينفعهـا، في المـدى الـطويل، إلا أولاد ضرّتها، خاصّة في شيخوختها، وهو وقت يكونون

فيه في غِنًى عنها، فلا تستطيع مجازاتهم على عطفهم عليها، فيكون برّهم بها عذابا لها وألما في الدّنيا. وقد يعقّها أولادها بما يفزعها، ويزيد في شقائها. وكانوا - يا بُنَيّ - يتفنّنون في هذه القصص، ويعدّدون نتائجها المرعبة، ممّا يجعلهم يصلون إلى التأثير المطلوب.

أو يكون الأذى من طالب في مدرسة، وهذا ما يهمّك الآن، يركب رأسه، ويتبع هواه، ويتذرّع بقوّة ما، سواء كان ذلك لأنّه أكبر من غيره سنّا، أو جسما، أو له أخ فيه هذه الصّفات، أو له مجموعة من زملائه تساعده على هذا التسلّط، فيذيق الآخرين ألوان الأذى، لجهله بنتائج عمله، فيسلّط الله عليه من لا يرحمه، ممن هو أكبر منه سنّا أو جسما، فيحدّ من قوته وآذاه وتسلّطه، ويكسر شوكته أمام من كان يتطاول عليهم، ويجعله أمثولة، فيتذكّر ما نبّه إليه من عواقب الظّلم، ويكون عبرة لغيره، ويأخذ درسا يفيده عندما يكبر وينضج، هذا إذا أراد الله له خيرا.

كان آباؤنا ـ يا بُنَيّ ـ جيدين في العناية بأبنائهم، ومتابعة تربيتهم، كلّ بقدر إدراكه. وكانوا ينتهزون الفرص لتذكير أبنائهم وتبصيرهم بما ينفعهم، وتنبيههم إلى ما يضرهم، لا يدعون فرصة تمر إلا اهتبلوها، ولا يتركون حدثا إلا استفادوا منه. كان لديهم من الوقت ما يجعلهم يفكّرون في أبنائهم: يتابعون نموّهم، ويراقبون خطوهم، ويوجّهون سيرهم، ويقيلون عثراتهم قبل أن تغوص أقدامهم في الوحل بما لا يمكن معه انقاذهم. كانوا يقسون عليهم أحيانا ظاهرا، ولكنّهم باطنا يخالفون ذلك. قلوبهم لها رفيف من الخوف عليهم، ورفيف من العطف عليهم والحنوّ، ففي الوقت الذي يقول أحدهم «للمطوّع»: أو المدرّس في الكتّاب، وقد أحضر ابنه يجرّه من أذنه لمخالفة ارتكبها تجاه المدرسة: «لك اللّحم، ولنا العظم» أي اسلخه بالضّرب، حتى لا يبقى على جسمه لحم، إذا أخطأ، والطّفل المسكين يرتعش ارتعاش العصفور بلّله القطر، ولكنّ الوالد في الوقت نفسه يمسك بيد

obeikandi.com

«المطوّع»، ويبرز به إلى خارج المكان، وينفرد به، ويقول له: «إن الضّرب يميت القلب، ويبلّد الذّهن، فحاول أن تتجنّبه»، ويشدّد في هذا، لأنّه بلغه قسوة هذا المدرّس. فأوهم الأَبن شيئا، وأفهم المدرّس غير هذا، وحاز كلا الحسنيين، وأكمل عناصر التربية الصّحيحة.

أرأيت - يا بُنَيّ - كيف أحسن الوالد التّصرف في حدود امكانات زمنه العقليّة. قارن هذا بأب اليوم - وليس كل الآباء - يدخل على مسؤول في التّعليم، يحاسبه على خطأ ابنه، وهو لا يعلم ما اسم المدرسة، ولا السّنَة التي هو فيها، ولا يشعر باهماله الذي ارتكس فيه إلا عندما يظهر له ذلك أمام النّاس.

ولا ينتهي الحديث - يا بُنَيّ - عن المدرسة والتّلاميذ، ولا عن الرّوغان عن الدّراسة، ولا عن كذب الأطفال على الأهل في ادّعاء الذهاب إليها وهم لم يذهبوا، وبدلا من ذلك ذهبوا يلهون

ويلعبون، ويجرون خلف ما هو أكثر متعة، وأقلّ عناء، وقد لمسنا بعض هذا في أحاديث سابقة، ولعلّك تذكر التّلميذ الذي وضعه المدرس في «المشلّة» أو «الفلكة» أو «الجحيشه»، لأنه اكتشف أن عنده كليبا «جُريّ»، وأنه يذهب في بعض الأحيان لاطعامه وملاعبته، ولعلّه مما يزيد من معلوماتك أن تعلم أن التّلاميذ في زمن والدك وجدّك لم يختلفوا في هذا عن زمن من سبقهم بمئات السنين من أجدادهم، فليس زمنهم مثل زمنكم تتغيّر فيه ملامح التّعليم واللّعب بسرعة، نتيجة لسرعة النّمو والتّطوّر، فزمنكم تغيّر فيه التّعليم وطرقه ووسائله وامكاناته، وتغيّرت المدن ووضعها.

إليك صورة من هذا النوع الذي لم يتغيّر فكما كان في زمن أبيك وجدّك كان في زمن القاضي شريح:

كتب شريح القاضي إلى معلم ابنه عن هذا الابن[1]:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها
يبغى الهراش مع الغواة الرجّس
فليأتينكّ غدوة بصحيفة
كتبت له كصحيفة المتلمّس
فإذا أتاك فعضّه بملامة
أو عظه موعظة الأديب الكيّس
فإذا هممت بضربه فبدرّة
وإذا بلغت بها ثلاثا فاحبس
وأعلم بأنّك ما أتيت فنفسه
مع ما يجرّعني أعزّ الانفس

أرأيت - يا بُنَيّ - إنّها رغم بعد زمنها تجرى مجرى ما كان يحدث قبل خمسين عاما في بلادنا. هذا ابنه يترك المبادرة إلى الصلاة، ليلهو بمهارشة الكلاب، وقتالها بعضها مع بعض، وهذه الكلاب لابد أنه هو

(١) العقد الفريد ٢/٤٣٥.

وأنـداده كانـوا يتنـافسون في اقتنائها، ويسكّنونها الخرابات والأثول، يسمنّونها ويقوّونها، حتى تغلب غيرهـا في المهـارشة و«المهاوشة»، ويتلذّذون بهذه الـرّيـاضـة المتـوحّشـة، ويتفكّهون بهذه الضّراوة العاتية، ويتمتّعون بهذه القسوة المتناهية، وينفقون على ذلك في الخفاء ما الله به عليم، فقد يقتطعون لها من غذائهم، وما أقلّه، ولا بد أنّ انتصار كلب على آخر فيه من الفرح والبهجة ما يعوّض عن كل تعب، ويجبر كل خسارة، فيهون الاجهاد، الذي بذلـوه في إخفـاء الكلبِ، وفي تغـذيته ومراقبته، وتـدريبـه. وهم ـ يا بُنيّ ـ يبذلون جهدا لو بذلوا ربعه في الدّراسة لتفوّقوا. يختارون له آسما يتناسب مع موسيقى سمـع الكـلاب، ويكون ذا هدف، لعلّك لم تسمع عن الذي سمّى كلبه، وقد وضعه في أثل مهجور، خارج المدينة، فلا يظهر الكلب منه إلا إذا نودي باسمه، واسمه «من ذا» أي من هذا، تصـوّر انسانا يمرّ قريبا من الأثل، فيستفسر عن مصدر حركة فيه بقوله: «من ذا؟» يعني «من المارّ؟»

أو «القـادم» أو «من هناك؟»، وتكون النتيجة أن يندفع إليه فجأة كلب شرس في هذه المقطعة.

وشريـح - كما رأيت - يكتب كتاباً يوهم ابنه بمحتواه، كما أوهم الملك عمرو بن المنذر المتلمس بأن ما في صحيفته ثواباً، وهو في الحقيقة عقاب. ويطلب شريح من المدرّس، وهو المربّي، وله هيبته مما يجعل تأثيره على التلميذ أكثر من أهله، أن يلومه لومـا قاسيـا، أو يعظه موعظة بالغة، وإذا أحوج الأمـر إلى الضّرب فلا يزيـد عن ثلاث ضربات، حتى لا يدخـل الأمـر مرحلة التعـزيز، والضّربة الأولى يضمن معها الخوف والرّهبة، والثانية تؤكّد الأولى، وتؤكّـد واقـع الجـزاء، وتوحي بأن جلدا متعددا مقبل، والثالثة فيها ألم الضّرب، وألم الخوف مما هو مقبل، وينتهي الأمر بها لفرحة المضروب. ولـو زاد الضّـارب على ذلـك على من هو في هذه السّنّ، فقد تبدأ الفائدة تنحدر، وتتلاشى، ويصير التّـأديب غير ذي جدوى، ويدخل الصّبي مرحلة التحدّي والعناد، بل المفاخرة أحيانا. ولكنّ شريحاً

وهـو يوصي المـدرّس لم يستـطع أن يخفيَ عاطفـة الأب، فيسـارع لهذا ويقـول: إنّ ابنـه، رغم ما يجرّعـه إيـاه من الأوصـاب والأزعـاج، فإنـه أعزّ الأنفس عنده، فعلى المدرّس ألا ينسى ذلك.

وعـاطفـة الأب ـ يا بُنَيّ ـ نحـو أبنائه لها صفة محدّدة، تنبـع من الصّلة التي جعلها الله بين الأب وابنـه، ويـأتي تصرّف الأب نحـو ابنه مقيّدا بهذه الصّلة، ومصبـوغا بصبغتها، وما ظهر من شريح نحـو ابنـه من غضبه منه لسوء تصرّفه، وهو بهذه السّنّ الغضّـه حدّ منه حبّه له، وحنّوه عليه، لأنّه قطعـة من نفسـه، فهو غضب منه لحبّه له، وأدّبه حمايـة له لحبّه له. هذا معاوية بن أبي سفيان يمرّ بتجـربـة تستحقّ أن يوقف عنـدها، تمثّل مكنون الفؤاد من العاطفة الأبويّة للابن[١]:

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس، وهو من هو في العقل والرّزانة، والتّجربة في الحياة، ومعرفة ما

---

(١) العقد الفريد ٢/٤٣٧ .

يسكن قلب الوالد لولده، وما يعشّش فيه من رقّة وحنان، وما يغلّفه من نبضٍ طَرحُهُ جَلْب النّفع له، ودفع الضّرر.

فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟

قال الأحنف :

ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فاعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبّوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلا، فيملّوا حياتك، ويحبّوا وفاتك، فقا له معاوية :

لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإنّي لمملوء غضبا على يزيد، فسللتَه من قلبي» (يعني الغضب).

ولا حرج - يا بُنَيّ - في أن نستطرد قليلا هنا فيما فيه مصلحة لك، والاستطراد هنا دعا إليه أمر الاستشارة والمستشارين. والمرء - يا بُنَيّ - بمن

يستشير، وبمن يشير عليه، فعلى رزانة المستشار، وحسن قصده، وتجرّده من الهوى، وعمق تجربته، وسعة مداركه، ودقّة ملاحظته، تتوقّف أمور كثيرة على رأيه ومشورته، وتكون سببا في نوال القصد أو ضياعه:

كان أحد ملوك فارس يتّخذ له وزيرا حازما مجربا، وكان يصدر عن رأيه، ويرى اليُمن في مشورته، ثم إنّ ذلك الملك هلك، وقام بعده ولد له، معجب بنفسه، مستبدّ برأيه، فلم ينزل ذلك الوزير منزلته، ولا أهتبل رأيه ومشورته. فقيل له: إنّ أباك كان لا يقطع أمرا دونه. فقال: كان أبي يغلط فيه، وسأمتحنه بنفسي.

فأرسل إليه، فقال له: أيّهما أغلب على الرّجل، الأدب أو الطّبيعة؟

فقال له الوزير: الطبيعة أغلب، لأنّها أصل والأدب فرع، وكلّ فرع يرجع إلى أصله.

فدعاه الملك بسفرته، فلما وضعت أقبلت سنانير بأيديها الشّمع، فوقفت حول السّفرة، فقال الملك للوزير: إعتبر خطأك، وضعف مذهبك، متى كان أبو هذه السنانير شمّاعا؟

فسكت عنه الوزير، وقال: امهلني في الجواب إلى الليلة المقبلة، فقال: «ذلك لك».

فخرج الوزير، فدعا بغلام له، فقال: إلتمس لي فأرا، واربطه في خيط، وجئني به، فأتاه الغلام به، فعقده في منديل، ووضعه في كمه، ثم راح من الغد إلى الملك، فلمّا حضرت سفرته أقبلت السّنانير بالشّمع كالعادة، حتى حفّت بها، فحلّ الوزير عقدة المنديل، ثم ألقى الفأر بين السّنانير، فاستبقت إليه، ورمت الشّمع حتى كاد البيت يضطرم على القوم نارا.

فقال الوزير للملك: كيف رأيت غلبة الطبيعة على الأدب ورجوع الفرع إلى أصله.

قال الملك: صدقت. ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه من الاستشارة، وقبول الرأي، فانّما مدار كل شيء على طبعه. والكلف مذموم من كل وجه[1].

ونعود - يا بُنَيّ - إلى الأبناء، فنقول: إنّ العطف عليهم ورعايتهم قلّ أن يضيع سدى، فمردوده في الغالب محمود، وثمره يانع، وبرّ الأبناء بالآباء لا تحدّه حدود، وما دوّن منه لا يسهل حصره.

قيل لعمرو بن ذرّ: كيف بر ابنك بك؟

قال: ما مشيت نهارا قطّ إلا مشى خلفي، ولا ليلا إلا مشى أمامي، ولا رقى عِلّيه (سطحاً) وأنا تحته[2].

(١) تأديب الناشئين ص ١٧٩، والعقد الفريد ص ٤ جـ ٣.

(٢) العقد الفريد ٤٢٤، ٤٣١.

وهـذه الثّمـرة الناضجة تستحق كل ما صرف عليهـا، وأنفق في نمائها، من مال وجهد ووقت، وهي تأتي في وقت تكـون الحـاجـة إليهـا ماسّـة، والطلب ملحّا. وأجمل جانب فيها أن يجد الآبن لذّة في أن يقـوم بما يقـوم به منهـا، ارتفـاعـا بالخلق، واستجـابـة للأصـالة، وإرضاء للربّ، وأملا بأن يكون له من أبنائه ما كان له من أبيه:

هذا حيوة بن شريح، على علمه وفضله وعلوّ مقامه، يعقد للنّاس مجلسا للتّدريس، فتقول له أمّـه: قم ياحيـوه، إلق الشّعـير للدجاج، فيقوم[1].

ترى أي نشوة يشعر بها هذا الابن البار، وهو يستجيب لأمـر أمّـه، فيوقف عمله المهمّ، ويقوم ليعـطي الدّجاج الغذاء، ويعود إلى صحبه بنفس راضيـة. لقـد استجمـع في هذه اللحـظة حمله وفصاله، ورعاية أمه له، حتى استطاع أن يسبح في

(١) العقد الفريد ٢/٢٢٨.

خضمّ بحر الحياة، غير خائف من غرق، أو التقام حوت من حيتان هذه الحياة متلاطمة الأمواج.

أي بُنَيّ!

أبعدنا بك قليلا عن فناء المدرسة الذي اقتربنا منه، ثم حذفنا تيّار الاستطراد بعيدا عنه، ولكن لا بأس بهذا، فنحن نتذكّر قول أردشيربن بابك: «إن للآذان مجّة، وللقلوب مللا، ففرقوا بين الحكمتين يكن ذلك استجماما»[1].

ونعود إلى المدرسة، ولعل عودتنا إليها لا تنفّرك، أو تضجرك، لأنّي أعرف أن ما يشدّك نحو المدرسة هو الحديث عن الاجازة، فلو كان الحديث عنها لارتسمت على شفتيك ابتسامة رضى، تمتدّ بعرض وجهك، وكانت سرج وجهك أضاءت شمعاتها كما لم تضئ من قبل، ولشفّت ملامحك عن أنّك سرحت بفكرك، وانتقلت من الرّياض إلى ساحل البحر في جدّه، أو في الخبر، وخضت البحر وبيدك

(١) العقد الفريد ٢/٢٥٩.

سنّارتك، وأنت ترجو أن تعطف عليك السميكات، وترأف بك، وأنت ضيفها، فتوقع نفسها، طوعا واختيارا وتشرّفا، في طعمك، ولتركتني أتحدّث إلى نفسي، وأنا أظنّ أني أتحدّث إليك، وليس لي منك إلا عين ساهمة، وفم مزموم، وأذن منتصبة، ترى ولا تسمع، حواسّك عندي، وعملها هناك، وأنت كأنّك تمثال من شمع.

على أي حال، سأخرج، كالمعتاد، من حديث أرتضيه إلى قول ترتضيه. ما يرضيني هو نصحك وتبصيرك، وما يرضيك هو التّسلية والترويح. وما دامت أبواب إفادتك لا تفتح إلا بهذا المفتاح السّحري:

إذا لم يكن إلا الأسنّة مركب
فما حيلة المضطرّ إلا ركوبها

ولستُ بدعا في هذا، فشركات الأدوية فعلت هذا قبلي، ولبّست الدواء بلباس حلو، ونجحت الحيلة، فأُخِذ الدواء برضًى، وجاء بالنفع.

الأولاد ـ يا بُنَيّ ـ في كل زمن، إذا خرجوا من المدرسة، أو اجتمعوا في أوقات القيلولة، وأهلهم نيام، يتسكّعون في الطّرقات، أو يجلسون في «القبب» أو في «المجبّبات» أو تحت شجرة أثل، أو سدرة، أو شجرة نيم، أو في ظلّ أحد البيوت، بحثا عن الظّل، والأماكن الباردة في الصّيف، وسبق أن رسمت لك صورة عن المبارزة، أو «المضاربة»، التي تكون بين تلميذين، وذكرت عن الفريق من الأولاد الذين يعضّدون هذا أو ذاك.
وسبق أن ذكرت لك الألعاب التي كان يلعبها أبناء زمن والدك، وجدّك وأسلافهم، وأريتك أنّ بعضها يحتاج إلى أدوات، وبعضها لا يستلزم ذلك، لأن أدوات هذه هي الأجسام، بمختلف أعضائها، وبعض هذه الألعاب التي لا تحتاج إلى أدوات يناسب لعبها وقت العودة من المدرسة إلى البيت، فيلعبونها وهم يسيرون، تساعدهم على قضاء وقت السّير ببهجة وحبور، بعد المدرسة، وما فيها من عناء في نظرهم. هذا السّير سير عجيب، ينحني

أحدهم، واضعا كفّيه على ركبتيه، فيأتي آخر من مسافة غير قريبة، يركض، ثم يقفز من فوق هذا المنحني، واضعا كفّيه على ظهره، حتى يساعده هذا على القفز، دون أن يتعثّر بجسم هذا المنحني، ثم يتبعه ثان وثالث ورابع حتى السّابع أحيانا، وتسمى هذه اللعبة «السبت سبّوت»، لأن القافز الأول يقول هذه الجملة أثناء القفز.

أما الثّاني الذي يأتي بعده فيقول: الأحد عنكبوت، والثّالث يقول: الاثنين «انبا انبا»، والرّابع: الثلاثاء «خط الصبيان»، والخامس: «الاربعاء «نتّافة الآذان»، والسّادس: «الخميس فرحتنا»، والسّابع: «الجمعة نكرتنا»، «إلْحَقهم يا ولد».

فإذا مرّوا كلّهم، بسلام دون أن يقع أحد، أعادوا الكرّه، ولكن هذه المرة بوضع «الطّواقي» أو «الكوافي» جمع طاقيّة وكوفيّة، فإن وقعت احداها جلس الذي أوقعها مكان الأول، وأعفى ذاك من التّعب، ومن ضرب الأكفّ على ظهره، وثقل

الاجسام القافزة. واختيار من ينحني الأوّل أمر ليس صعبا، «فضرب القرعة» يسهل كلّ أمر صعب، وهم يلجؤون إليه حكما في كثير من الأمور، واجراء القرعة يأتي في صور عديدة، أبسطها أن يأخذ أحدهم نواة تمرة، فيخبئ يديه خلف ظهره، ويضعها في إحدى يديه، ثم يبرزهما، ويسأل آخر عن مكانها، فإن أخفق معرفته أصبح هو المختار. (لاحظ أن النّوى متوفّر في الأرض من كثرة أكل النّاس للتّمر، واعتمادهم عليه في مطعمهم، فالأرض خاصة في نجد، ملآى به).

وفئة أخرى لعبها بالسنتها وعقولها، يقصّون قصصا، أو يلغزون ألغازا، ولكن قبل أن أدخل معك في هذا الجانب، ونجوس خلال دياره، أصف لك لعبة أخرى لا أدوات لها إلا أجسام اللاعبين، واسمها غريب لأنه لا يدل على معنى، ولا يحدّد لها منشأ، يقولون: «طبق زيزى، طبق حاس»، وان ظننّا أننا عرفنا اتجاه معنى كلمة «طبق» لغة، فلا نفهم معنى: «زيزى» ولا «حاس».

يقف الشخصان متظاهرين، يلصق أحدهما ظهره بظهر الآخر، ويدخل أحدهما يديه تحت إبطي الآخر، ويلفّهما تجاه كتفه، وينحني هذا إلى الأمام، ويحمل الآخر على ظهره، ويقلّه عن الأرض، ثم يعود به إلى استقامة الجسمين، وتكرّر الحركة من قبل الشخص الآخر، انحناءة يقال معها «طبق زيزى» وأخرى يقال معها: «طبق حاس»، وتكرّر هذه الحركة عدّة مرات، حتى يتعب اللاّعبان أو يملاّ. وهي كما رأيت - يا بُنَيّ - رياضة بدنية مفيدة، ولم يكن في تلك الأيّام سمنة إلا نادرا، ولهذا كان التكافؤ في الأجسام هو السّائد، وعلى هذا فالتّساوي في الوزن واحد.

وقد يكون اللاّعبون صغارا، وتكون ألعابهم متناسبة مع أحجامهم وعقلياتهم، وقد تكون بالقول، وقد تكون بالفعل، فالقول يقصد به «التعجيز»، يطلب أحدهم من الآخر أن ينطق جملة صعبة النطق إذا قيلت بسرعة مثل الجملة المحبّبة إلى الصّغار: «أفَسَنِسْتَنْبَكْتَ كَنِفْتَكَمُوهَا ان كنتم رجالا

فاعـرفوها» . أو تقود إلى شيء مضحك، أو مزلق مسلّ، وأحيانا يكون الهدف منها اظهار لثغة أحد الصّغار، فهذا يطلب من آخر، لثغته في نطق حرف السين ثاء، أن يقـول: «سِتِّي بَسَّتْنِي بَسَّه بَسِيْسَه بالعَسَل والسُّكّر والهَريسَه، ياخَسارَه»، ولا تسمع من الآخـر إلا ثأثأةَ بدلا من السـأسـأة، فينفجر السّامعون الصّغار ضحكا، وقهقهة، وتتّسع الدّنيا أمـام أعينهم فرحا، كأنهم حازوا الدّنيا وما فيها، مادامـوا نجحـوا في أن يوقعـوا زميلهم في شركهم الذي نصبوه له.

ومجمـوعـة أخـرى تطلب من أحد أفرادها أن يقـول: «الـشَّـتّــه تَنتِش التِّيس، والتِّيس يَنتِش الشّتّـه»، فتعرف أن من بين الموجودين أحد أبناء غامد أو زهران، حيث توجد الشثة، وهي شجرة أقـرب إلى «الـدّيـدُنيـا»، أو هي هي، ولعلهـا تستعمل للدّباغة أحيانا، فإذا أسرع الطّفل بنطقها تراكبت الحروف، وتحاسدت على مواقعها، وخطر أحدها أمام الآخر، فالتّاء تأتي في غير محلها، والسّين

obeikandi.com

تزاحم الشّين مكانها، والشّين تسبق السّين في النطق بها. وفي هذه الحركة وهذا التزاحم، لذّة لا تعدلها لذّة، تراها ماثلة في أعين الصّغار، وتلمحها في وجناتهم، وتسمعها في ضحكهم وقهقهتم، وصفق أيديهم، وقفز أجسامهم.

ولا تستغرب هذا ـ يا بُنَيّ ـ وليس عهدك ببعيد عندما كنت تقتنص الألغاز من الذين هم أكبر منك سنّا، وتأخذها إلى من هم في سنك، أو أقلّ قليلا، وتحاول أن تتعالى عليهم بمعرفتك لها، وعجزهم عنها، هل تذكر لغز: العنز والذئب وحزمة القت «البرسيم»؟ وكيف أنها اجتمعت في بئر، وتريد مني اخراجها على ألا أترك اثنين ممن أحدهما يصلح طعاما للآخر. فلا أترك العنز مع الذئب، ولا العنز مع البرسيم. وحاولتَ معي في أن أخرجها واحدا واحداً، وعندما بدأت بافتراض اخراج الذئب أولا، اعترضت، ونبهتني إلى أن هذا يعرض «القت» أن تأكله العنز، فأردت أن أخرج القت، فادركتُ أن الذئب سينفرد بالعنز فيأكلها، فوافقتني على أن أبدأ

باخراج العنز، ثم قلت لي ثم ماذا؟ فقلت: أعود واخرج الذئب، فقلت لي: «إذا عدت إلى البئر بعد اخـراجك الذئب أكل الذئب العنز خارج البئر، فقلت: «أعــودُ بالعنـز معي إلى البئـر» فوافقت، وعدت بالعنز، وتركتها بالبئر، ثم أخرجت القت، وطرحته أمام الذئب، فصدّ عنه، وعدت إلى العنز فأخـرجتهـا. وبقيت بين الثـلاثة أحرس هذا من هذا. وهكذا انتهيت من الأمر، وأنا الهث، وأنت تتفرّج. ولكنّي ربحت بعد إعمال الفكر.

وما دمنا بصدد ذكر بعض ما تمضون به وقتكم هذه الأيـام، فمن المـلائم أن أذكر ما تحاولون أن تظهـروا فيـه عجز بعضكم، وتعتمدون في ضوء ثقافتكم على الكتابة، والتّصرف في اخراجها، حتى تتمّ لكم الحيلة. يسأل أحدكم آخر أن يقرأ له هذه الجملة: «يـدهـر التـوت»، فيحتار الآخر، كيف يُدْهِرُ التُّوت! هل معناها أنه مرّ على التوت دهر، إن الجملة لا تعني كثيرا، ثم يتبيّن أنّ الالغاز والحيرة جاءت من تقريب كلمة «هر» عند «يد» فبدت كأنها

obeikandi.com

«يُـدْهِر»، وهي في الحقيقة «يَدُهرٍ الْتوتَ»، وبهذا يتجـلّى الأمـر وتتّضح الصّورة، وينتهي العجب، وتعرف الزاوية الّتي جاء عن طريقها الختل.

ومثلهـا جملة تلقـونها على الـورق صامتـين، وتطلبون قراءتها، وهي: «مدبر بك»، وعندما يحتار القارئ في قرائتها قراءة تعطي معنى مفيدا، وعندما تؤتي الحيرة ثمارها، يأتي الحلّ في تشكيل حروفها، ووضع الكلمات في مواضعها، فيتبين أنها: «مُدُّ بُرٍّ، بِكَمْ؟».

وسبق أن قلنـا: «إن القِدْر لا ينتصب إلا على ثلاث»، فلابـدّ الآن من لغـز ثالث، تطمئن به نفسـك، خاصـة وأننا نعدّد ما يدخل في زمنكم، وعصبيّتكم، مثـل عصبيـة غيركم في زمـانهم، تجعلكم لا تتنازلون عن حقّكم فيما يخصّ زمنكم، ولا بدّ من أخـذكم له وافيـا، إذاً لا بدّ من اللغز الثالث، وليس عليّ جهد في هذا، فأنت مصدري في كثـير مما أقول، ولم تقصّر في اطلاعي على هذه الطُّرف، ولم تتوان في الاعادة والتّكرار، وطالما كنتُ

سبورة لك، تعرض عليها وسائل إيضاحك قبل أن تعرضها على الآخرين، وطالما غلبتني في عمق الايهام. وأصبح مكاني من الحلّ بعيدا، وطالما كانت حيرتي مصدر رضى وارتياح لك، ولعلّك بهذا تضع في كفتك ما يعدلها مع ما سبق أن رجحت به عليك.

واللّغز الثالث يجري على منوال آخر يختلف قليلا عن اللّغزين السابقين، وهو: «ابعدهاب»، وكما ترى على أي صورة أتيت بها، وعلى أيّ منحى قلبتها، ما يتأتّى معك الحلّ، ولا يطاوعك لها معنى، وهي يسيرة إذا ما سُهِّل حزنها، وليّنة إذا ما لُيِّن صعبها. وحلّها في كتابتها بطريقة أخرى، وهذه الطّريقة وجهها كالآتي: «أَلِفٌ بَعْدَهَا بَاءٌ»، أرأيت سهولتها عندما وضّحتها لي أنت، وقبل ذلك وقعت معك فيها في حيص بيص. (اِبحث عن حيص بيص في القواميس، وفي كتب الأمثال، وأرجو ألّا تقع معها في حيص بيص، وإن لم تجدها في حيص فابحث عنها في بيص).

obeikandl.com

ونعود ـ يا بُنَيّ ـ إلى الالعاب البسيطة السّهلة التي تتناسب مع سنّ الصّبيان الصّغار، حتى لا تنقطع صلتنا بالألعاب. وهذه المرة ستكون اللّعبة بين اثنين، يبسط أحدهما يده الشّمال، ويضع عليها بسطا اصبعين فقط الخنصر والشّاهد،ويكون الخنصر، وهو الأطول، تجاه الشّخص الآخر، فيقول له اللاّعب: انظر فإنّ الاصبع الأطول تجاهك، وسوف ترى بعد ثانية أنّه انقلب إلى أقصر، وبحركة سريعة وخاطفة يرفع يمينه إلى أعلى، وأثناء هذا العمل يبدّل الأصبع الخنصر، فيضع مكانه الشّاهد، ويضع مكان الشّاهد البنصر، فيكون الذي جهة المتفرّج أقصر، ويتمّ بهذا العمل السّحر لمدّعي السّحر، مع دهشة المشاهد. وهذه الحركة على بساطتها تحتاج إلى دقّة وسرعة ومران، حتى تأتي بالأثر المطلوب منها.

وتجد مجموعة وقد تحلّقت حول طفل قد اخترع شيئا أشبه بالسّحر أيضاً فقد جاء بجزء من مفصل في رجل الضّأن، لا يزيد طوله عن أربعة

سنتيمترات أو خمسة، مقفل من الجانبين، يسمونه: «العِجْل» أو «العِجْلة»، لأنّ أحد طرفيه يشبه رأس البقـرة، والآخـر يشبـه عجزها، وداخله مجوف، فيخـرق اللاعب منفذين في أعلاه، وهو ما يماثل ظهر العجل، وآخرين في أسفله، وهو ما يماثل بطن العجل، ثم يدخل خيطا من أحد المنفذين الاعليين إلى ما لا يقابله من الاسفلين، ويكون لونه مغايرا لآخر يدخله من المنفذ الثّاني في الجانب الأعلى إلى ما لا يقابله من أحد المنفذين الاسفلين، فإذا جرّهما إلى أعلى أوهم أن دخولهما في العِجلة قد غيّر لونيهما، لأن الدّاخل من اليمين من أعلى وهو أحمر، يخرج من الفتحـة المقابلة إلى أسفل أسودا، فإذا عكس الأمر من أسفل إلى أعلى حدث مثل ذلك. فترتسم على الـوجوه الدّهشة والاستغراب، ومحاولة معرفة الحلّ دون جدوى، إلا إذا شرح صاحب اللّعبة أن السّرّ في اختلاف المدخل عن المخرج.

ولعلّك تذكر تلك اللّعبة الممتعة التّي امتدّت إلى زمنـك، كنت تجلس مثل جلستك للتحيّات،

ويجلس آخـر أمامك، فتضع ركبتيك إلى ركبتيه، وتمسـك شحمـة أذنيك بيديك، ويضع يديه على ركبتيه، وتحاول أن تغافله بانزال إحدى اليدين بقوّة إلى يديـه المبسـوطتـين على الركبتين، فإذا ضربت ظاهـر الكفّـين، ولم يتمكّن من رفعهما كنت أنت الغالب، والا فأنت المغلوب، ثم تأخذ أنت الوضع الذي كان فيه، ويأخذ هو الوضع الذي كنت فيه، وهكذا دواليك، حتى تملّا، أو يقطع عليكما اللّعبة أحد، بعد أن تكون ظواهر الأكفّ قد احمرّت، أو احمرّت بدلا منها أطراف الافخاذ التي كانت تحميها الأيدي، فنزلت عليها الاكفّ خطأ.

وهي لعبـة تخص سنّا معيّنة، وتقوم بدورها في الـتّرويـح عن النّفس، وتعلم الـلاّعبـين المخاتلة والتوقّي، وسرعة التّصرف، ومحاولة سَبْرِ غَوْر ما في نفس المهـاجم، ومـا في نفس الآخـر، لا يدري المضروب أيّ اليـدين التي سوف تنـزل عليه مثل «المـرزبّـة» بسرعة البرق، فعينه تنتقل بين اليمين والشّمال، تحاول أن تلحظ أيّ بادرة أو حركة، أو

نبض عرق، وما أكثر الحركات الموهمة في الجانب الآخر.

وهناك ـ يا بُنَيّ ـ لعبة الأنن في مكّة، وهي لعبة طريفة، وتقوم أيضا على التّعمية والايهام، يتقابل مجموعة من الأطفال أو الصّبيان، ويكوّنون حلقة متوسط اتّساعها، قد لا يزيد أفرادها عن أربعة، يطأطئ أحدهم رأسه ثم يضرب أحدهم على مؤخّرة رقبته[1]. ثم يرفرفون بأيديهم بمحاذاة أكتافهم، في صورة تشبه أجنحة النّحل، وهي تحوم على الزّهرة، ويقولون بصوت يشبه صوتها «إنْ» ويمدّونها، وعلى المضروب أن يعرف الضّارب، وإلا عاد إلى طأطأة الرأس حتّى يُضرب مرة أخرى، وتعاد اللّعبة عدّة مرات، حتى يُعرف الضّارب، فيحلّ محمل المضروب، وتستمرّ اللّعبة هكذا.

وفي هذه اللعبة يقتص بعض الصّبيان من بعض، وتأتي الضّربة أحيانا قويّة، تشفي غيظ قلب

(١) خلف الرّقبة أو مؤخّرها يسمى بالفصحى «الكرد» وفي العامية العلباة وجمعها علابى.

أحدهم من الآخر، وأحيانا قوّتها أو ضعفها يكشف ضاربها، فإذا كان بين أحدهم وآخر عداوة دلّت قوتها عليه، وإذا كان هناك ودّ أو قرابة فالحنان في الضّربة يدل على القريب.

والحديث عن لعبة «الإِنِنْ» يجرّنا إلى الحديث عن قصيدة فكاهية، جادت بها قريحة الاستاذ الشاعر أحمد قنديل ـ رحمه الله ـ ألقاها نيابة عنه صديقنا الاستاذ عبدالله مراد ـ رحمه الله ـ في حفل مدرسة الفلاح بمكّة المكرمة، في بستان الزّاهر، بمناسبة تشريف خادم الحرمين الشّريفين الملك فهد لهذا الحفل، عندما كان وزيراً للمعارف في عام ١٣٧٣هـ. ومطلع القصيدة:

«غيري على السّلوان قادر
وسواي في العشّاق غادر»
وأنا المعاوس من قديم
في كتاتيب الحوائر
أيّام فكّ الحرف مكـ
ـوّرا كخلع الضّرس نادر

والبيت الأول ـ كما تعرف ـ للبهاء زهير، شاعر قديم. وما أردنا اثباته عن الالعاب في تلك الفترة ورد في البيت الرّابع والعشرين والخامس والعشرين والسّادس والعشرين، وهي :

في لعبة «الضّاع» الّتي فيها تنوّرت البصائـر
أو حيلة «اليَدَس» الّتي فيها تفتّحت الخواطـر
وقد برعت بلعبة «الانِن» كَمَانَه[1] ولم أفاخر

وهي قصيـدة ضافيـة فيها من صور التّراث ما يبهج، ومن الالعاب والعادات ما يجمل معرفته، ولعلكّ تجدها منشورة في أم القرى لذاك التّاريخ.

أمّا لماذا سميت هذه اللّعبة ـ يا بُنَيّ ـ «إِنِنْ» فلعلّ الصـوت الّذي يواكبها يشبه طنين النحل، خاصّة وأنهم يقـولـونـه بصورة جماعية، له دخل في هذه التّسمية، ولكنّي لا أجزم بهذا رغم قوة مظهر انطباق ما قلت على المـواقف. أمّا إن اكتشفت أنت سببا

(١) «كمانه» بالعاميّة تعني أيضاً.

أصحّ من هذا، أوفيه من الجزم ما ينفي التردّد والشّك سجّلت درجة عليّ في هذا. فاشحذ همّتك وابحث، وارجع إلى المعاجم، وسوف أساعدك على التعرف على بعضها، وأشرح لك اتّجاه كل واحد منها وفائدته، وأهدافه، والنهج الذي يتبعه، وتميّز أحدها على غيره. وهذا طبعا أمر مملّ لك، ولكني سوف أسجّل عليك هذا الملل، وما يتبعه من مدافعة ومقاومة، فقد أحتاج إليه في يوم من الأيّام عند المجادلة والمحاجّة معك في أمر يلمس هذا الجانب، أو يحوم حوله.

والمعاجم العربية ـ يا بُنَيّ ـ مفخرة من مفاخر التّأليف في لغتنا، وسبب من أسباب حفظها، وسهولة الرّجوع إلى الكلمات ومعانيها فيها، وسبقنا إليه، وبززنا أمما تعتبر أنّها اليوم قطعت في هذا شأوا بعيدا، وشوطا متوغّلا. ولا يزال لدينا من المعاجم، والتّنوّع فيها والتميّز، ما لم يصل إليه كثيرون غيرنا.

هذا الحديث الذي جاء ـ يا بُنَيّ ـ عفوا على هامش ما كنّا فيه أو منه، فهو مثل منجم الذّهب،

قد تنبثّ حبيبات الذّهب بين ترابه، والتنجيم (هذه الكلمـة آتية من كلمة مَنْجَم. أسارع بتبيان ذلك لك، حتى لا تتجاوب أسلاك برق الاتّهام عندك، فتظنّني أتحدث عن تأثير النجوم) في حصول الفائدة من حديثنا لا يحتاج منك إلى عناء أو تعب أو جهد مثلما يتطلبه من ذلك مستخرج الذهب، فلا ماء ولا مناخل ولا وقوف في الشّمس، ولا مخاطرة في دخول منجم قد يتهاوى عليك سقفه، وتنهار جوانبه. لا يحتاج منك ـ يا بُنَيّ ـ إلا إلى الصّبر والأناه، فتقرأ كل ما يمرّ بك.

لاحظ كلمة «عفوا» التي مرّت بك قبل قليل، ترى لو سمعها أحد من جيل الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب هل يعرف معناها الذي ارتضيناه هنا، سيرا على نسق ما يعرفه جيلنا، ربّما ذهب مُعاصر ذلك الجيل إلى كلمة «العفو» المرادف للسّماح. هذه أيضاً ـ يا بُنَيّ ـ تحتاج منك إلى رجوع للمعجم، فقد تكون الكلمة تعني ما تعنيه اليوم، وقد بحثت أنا عنها، ووصلت إلى نتيجة، فعليك أنت أن تبحث

obeikandl.com

عنهـا، لأنّي لن أخـبرك بما توصّلت إليه، ولا تغترّ بتشكيكي بأن جيل عمر قد لا يعرفها، فقد أكون رصدت لك رصدا، ونصبت لك فخّا، فتنبّه.

أرأيت كيف بدأنا بلعبة من الألعاب، وانتهينا بالحديث عن المعاجم وتحرير الكلمات، وقد عرّجنا في طريقنـا هذه «التعريجة» بارادتنا، ولم نكن مثل السّيـارة التي اختـل «العكس» أو «مـدبّر الاتّجاه» فيها، فاتّجهت اتّجاها لا يد للسّائق فيه، ولا قدرة له على تصحيح المسار له، وسأريك الآن أنّ بامكاننا السّيطرة على قيادة أداة سيرنا، بأن أعود بزاوية حادّة إلى المعـاجم، وأبـدأ بالشّرح عنهـا، وهو أمر لن يعجبك عند سماعه، ولكنّي أرجو أن يعجبك عندما تحتاج أحد هذه المعاجم فتجد أنّك تعرفها.

سأحاول أن أختصر العدد، واختصر الشّرح، وأرجـو أن أستـطيـع أن أقـاوم لذّة تداعي المعاني والأفكار عن المعاجم، فلها متعة لا يعرفها إلّا من عاشر هذه المعاجم. يفتح أحدنا المعجم اللّغوي،

ليبحث عن كلمة فلا يكتفي بالبحث عنها، ولكنّه ينساق طوعا واختيارا إلى متابعة اشتقاق الكلمات وتشعّبها، والتلذّذ بما يكتشفه من معانيها، وصلاتها، وأصولها، مما يدهش ويعجب.

من أقدم المعاجم
كتاب الاضداد
لمحمد بن القاسم الانباري

وهو كتاب ليس كبيرا، وفي مجلّد واحد، وهو على اسمه يبحث في الأضداد، ويدور حول الكلمات التي تأتي بمعنيين متضادّين، ككلمة «الجون» بمعنى الأبيض والأسود. و «الجلل» بمعنى الحقير والعظيم. وهو معجم قيّم، خاصة وأن ما ألحق به من فهارس أزال ما قد يكون اتّسم به من صعوبة قبل طبعه على الطريقة الحديثة، وهذه الطريقة في موضوع المعجم تدل على ثاقب فكر مؤلّفه، وعنايته باللّغة العربية، وغيرته عليها، ودفاعه عن التّضادّ فيها، ودحضه حجج من هاجمها

obeikandl.com

في اللّغة. والمعاجم الأجنبية التي اعتنت بالكلمة وضدّها حديثة في هذا المضمار حسب علمي. ولصاحبنا العربيّ السّبق في وقوع فكرهِ على هذا المنحى.

وإذا رجعت إلى هذا المعجم فسوف تجد فيه متعة جلّى، وفائدة كبرى، لأنّ فيه من الفكر، والتّعمّق، والطّرائف، والاحاطة ببعض جوانب اللغة، ما يبهرك، ويزيد في ثقافتك مقدارا سوف يكون فيه مفخرة لك، ولن تجد مصدرا غيره يعطيك ما أعطاه.

كتاب جمهرة اللغة
لمحمد بن الحسن الازدي (ابن دريد)

وهو معجم يقع في أربعة أجزاء. واتّخذ مؤلفه فيه نسقا فريدا، ابتدعه، وهو من المعاجم المتقدّمة في الزمن، يأخذ المؤلف مادّة واحدة، فيقلّبها مع أحرفها على جميع الوجوه، مستقصيا كل ما هو معروف فيها من صيغ ومعان، فمثلا كلمة:

«ف ل ي» يأتي منها فيل، وليف، وهكذا، حسب تسلسل الحروف الهجائية.

كتاب الاشـتقاق
لمحمد بن الحسن الازدي (ابن دريد)

هذا مجلد يحتوي على جزأين، وهو معجم على اسمه، يدور حول الاشتقاق. وأقرب تعريف للاشتقاق هو: «أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بينهما في اللفظ والمعنى»[1]. والكتاب يبين الاشتقاق اللغوي لأسماء القبائل والرّجال، مع ما يدخل في ذلك من مادّة لغوية اشتقّت منها هذه الأسماء، ويتحدث المؤلف عن الآثار الدّينيّة والأدبيّة التي تمتّ بصلة إلى تلك الموادّ. وفيه من المعلومات الطّريفة ما يجعله جذّابا، ومفيدا.

الزّاهر في معاني كلمات النّاس
لمحمد بن القاسم الانباري

(١) الاشتقاق جـ ١ ص ٢٦ (المقدمة).

وهـو معجم في مجلدين، يشرح فيـه مؤلّفـه الأقوال، والأمثال، وكان من الصّعب الاستفادة منه عنـدمـا كان مخطوطـا، على ما فيه من مادّة غزيرة مفيدة، إلا أنّ هذه الصّعوبة تدوركت بعد طبعه، إذ قام محقّقه الدكتور حاتم صالح الضّامن بوضع فهـرس منسّق يرتّب هذه الأقـوال، والامثال، في طبعة وزارة الثّقافة والاعلام في الجمهورية العراقيّة (دار الرّشيد للنّشر).

معجـم مقاييس اللغـة
لأحمد بن فارس بن زكريّـا

وهو معجم في ستّة مجلّدات، مفيد، ومنتظم في السير على الطريقة الابجدية فيما يهمّك عند البحث عن الكلمات الخـاصّـة بمـوضـوعـه. والشّرح في مقدمته يزيل ما قد يعترضك من صعوبات.

الصِّحاح (تاج اللّغة، وصحاح العربية)
لاسماعيل بن حمّاد الجوهـري

وهو في ستّة أجزاء، وهو من المعاجم التي تسير في نظامها على مراعاة آخر الكلمة. وهو من أهم المعاجم العربيّة، ومن أشهرها، ولا تتردّد في الرجوع إليه - يا بُنَيّ - رغم أنه يسير على نمط لم تتعوّد عليه، فليس هذا من الصّعوبة التي قد تتصوّرها. إنك سوف تأنس به بعد أن تتعرّف عليه.

المخصّص

لعلي بن إسماعيل بن سيده

وهذا المعجم في خمسة مجلّدات، ويسير على طريقة متميّزة، يبحث في خلق الأنسان، مارّا بجميع أعضائه، . وما يتصل بها. يسمّيها، ويتحدّث عما تعمله؛ يتحدث عن كلام الانسان وفصاحته، وعن الغرائز والاخلاق والعقل، وعن المشي، وعن النّساء، وعن اللّباس والطعام والأمراض.

كتاب خلق الانسان

لثابت بن أبي ثابت

وهو في مجلد واحد، وهذا المعجم بديع في فنّه، يتحدّث عن خلق الانسان، وما يتصل بنمّوه، وأعضاء جسده، وما ورد في كلام العرب من أسمائها وصفاتها، وما يوضح المعاني من شواهد شعريّة وغيرها. والفهرس المضاف إليه سوف يسهّل لك الرّجوع إلى ما تريد أن تعود إليه، لأنه مرتّب على حروف الهجاء، ليسدّ النّقص الذي قد يجده أمثالك.

أساس البلاغة
لمحمود بن عمر الزمخشري

هذا المعجم مجلد واحد، وهو سهل الاستعمال، لأنه قريب من طرق استعمال المعاجم الحديثة، ويمتاز بتفريقه بين الحقيقة والمجاز، فمثلا في مادّة «زمر» يشرح عن حقيقة الكلمة بأن الصّبي الزّمر أو الزّعر قليل الشّعر، وشاة زمرة. وعن المجاز: فلان زمر المروءة، وعطيّة زمرة أي قليلة ضئيلة.

ولعل هذا ما دعاه إلى أن يسمي كتابه: «أساس البلاغة» لأن المجاز صور، وصور بديعة، لأنها

تعطي صورا مركّبة. فيها من الخيال ما يجعلها متميّزة عن الحقيقة المجرّدة، وبالمجاز يتميّز فصيح عن عيّ، ومبتكر عن متّبع.

المرصّع (في الآباء والامّهات والبنين
والبنات والاذواء والذّوات)
لمجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير

وهذا المعجم في مجلد واحد، واسمه يدّل عليه، فقد تناول المؤلّف فيه الاسم والشهرة والكنية، وما يدخل عند الشّرح من فوائد طريفه. واشتمل على الاسماء المترادفة لمسمّى واحد. وقد بُنى الباب الثالث منه على حروف المعجم.

وقيمة الكتاب لا تقوم على أنّه معجم من معاجم المعاني الخاصّة، بل تتجاوز ذلك فتكشف عن مادّة لغوية لا نجدها في كثير من كتب اللّغة، ثم إنّ هذه المادّة اللّغوية - يا بُنَيّ - تظهر طريقة العرب الاقدمين في إطلاق اسم العَلَم والشّهرة، كما

تكشف عن نظرتهم إلى أعيان الطّبيعة البدويّة من حيوان ونبات ومكان وزمان.

ابحث - يا بُنَيّ - عن بعض ما يهمّك مثل أمّ أربع وأربعين، وأمّ عويس، وأمّ قبيس، وأبو قردان، وأبو مقصّ، وأبو بيض، وأبو شبت، وأمّ طقّه، وأبو جلمبو، فقد تجدها أو بعضها أو رديفا لها في هذا المعجم، وقراءته من أمتع القراءات، لأنه لا يفاجؤك بأسماء طريفة عن حيوانات أو نباتات ألفت اسماءها، وانما يكشف لك عن ملمح اجتماعي وراء هذه التّسميات.

المشوف المعلم
(في ترتيب الاصلاح على حروف المعجم)
لعبد الله بن الحسين العكبري

وهو معجم اسمه ينم عمّا ينطوي تحته، وقد سهّل به مؤلفه الوصول إلى ما صعب من كتاب «إصلاح المنطق» لابن السّكيّت الذي أنقص الاستفادة منه، رغم أهمية ما فيه من علم،

وغزارته، صعوبة منهجه، فمعجم «المشوف المعلم» قد حوى المعلومات الواردة بكتاب: «إصلاح المنطق»، وزاد عليها أن رتّبها في نظام سهل، أمكن من العودة إليها للمراجعة عند الاحتياج. والمنهج السّليم في أيّ مؤلّف قد يعدل أو يفوق ما قد يكون في الكتاب من معلومات.

لسان العرب المحيط
لابن منظور

وهو معجم مشهور معروف، وفي أربعة أجزاء، ويأتي على طريقة السّير على نظام آخر حرف في الكلمة، وهذا قد تجده غريبا لأنّك تعوّدت على نمط آخر، وقد يكون متعبا لمن هم في مثل سنّك، ومستوى علمك، ومن غير المداومين النّظر فيه، وتعوّدك عليه سوف يفيدك، فليس منتظرا منك أن تتبع السّهل دائماً وإنما أيضاً، وكثيرا ما طالبتك بهذا، ركوب الصّعب في سبيل الاحتياز والكسب، خاصّة في العلم.

obeikandi.com

ومع هذا فيسعدك ـ يا بُنَيّ ـ أن تعلم أنّ هناك طبعة جديدة عن دار لسان العرب، صُنّف فيها هذا المعجم ورتُبّ على أساس الحرف الأول من الكلمة، ثم سار على ترتيب حروف الهجاء، قام بهذا الاستاذان يوسف خيّاط، ونديم مرعشلي. وهو في أربعة أجزاء.

القاموس المحيط
لمجد الدين الفيروز آبادي

وهذا القاموس (لاحظ أنّي قلت هنا القاموس، ولم أقل المعجم، كما قلت في السابقات، لأنبّهك بأنّ الأخريات معاجم، وهو أيضاً معجم، ولكنّ اسمه القاموس، وليست الأخريات قواميس إلا بما تجوّز به النّاس في أيّامنا هذه)، ويسير هذا المعجم على طريقة اتّخاذ أواخر الحروف في الكلمة أساسا للسّير، وهو خلاف ما تعوّدت عليه في المعاجم الحديثة.

إلا أنه يسعدك أيضاً ـ يا بُنَيّ ـ كما أسعدك عندما تحدّثنا عن لسان العرب المحيط أن تعرف أنّ هناك

openkandi.com

إعادة لكتابة هذا القاموس على الطريقة التي تألفها أنت وجيلك، أي السّير على أساس أوّل حرف من الكلمة. وقد قام بتصنيف هذا المعجم، وإعادة ترتيبه على هذا المنوال الاستاذ الطاهر أحمد الزاوي، وسمّاه: «ترتيب القاموس المحيط» على طريقة المصباح المنير، وأساس البلاغة، وهو في أربعة أجزاء.

المصباح المنير
في غريب الشّرح الكبير للرّافعي
تأليف: أحمد بن محمد الفيتوبي

وهذا المعجم في جزأين، ويسير على التّرتيب الذي اعتدته في المعاجم الحديثة. ولعله يصبح من أصدقائك، لصغر حجمه، وسهولة مراجعته، ويسر الحصول عليه.

وبعد ـ يا بُنَيّ ـ فأنا في هذه المعاجم، والحديث عنها، لم أتجاوز إلى ما أُلّف منها بعد القرن الثامن الهجري، وأحسب أنّ هذا كاف في إفادتك، أما ما

أُلف بعد هذا فهو في الغالب مصطفى مما سبق أن ألف، وفي بعضها من التكامل والترتيب، وغزارة المادّة ما تفخر به المكتبة العربية، ولكنّي اكتفيت - كما ترى - بما ذكرته، خوفا من الأطالة، وبُعدا عن وقوعك في الملل، فإن وجدت عندك الرّغبة، وتوفّر لك النّشاط، وتعرّفت على ما جاء منها متأخّراً، فسوف تربح ربحا عظيما، وسوف تجني فائدة جلّى، وستحوز مكسبا ثقافيا لا يستهان به، لإنضاج فكرك، وزيادة معلوماتك.

وأضمن لك - يا بُنَيّ - أنك إذا صادقت هذه المعاجم، وأقمت بينك وبينها جسور محبّة، ومددت طرق مهادنة، وحفرت قنوات صداقة، فسوف تجد فيها من المتع ما لم يخطر لك على بال، ففيها علم، وفيها ذكاء، وفيها عقل، وفيها طرافة، وفيها مفاجآت، وفيها قصص، وهو ما يهمّك الآن، استمع إلى هذه القصّة الطّريفة، وهي قد لا تكون حقيقة، وقد تكون كذلك، فقد تكون حدثت لأحد ملوك الغساسنة أو المناذرة، أو التبابعة، لأنّها

لا تحدث إلا لمتكلّم باللّغة العربيّة، وهي تفسير طريف للصّورة التي وجُدت بها الكنية: «أبو فلان»، وهذا يجعل من طرافتها ما لا يهمّ المرء ما إذا كانت حقيقة أم خيالا.

يقول ابن الأثير، صاحب «المرصّع»[1].

«لقد بلغني أنّ أصل سبب الكنى في العرب كان»:

«أن ملكا من ملوكها الأول وُلد له ولد، توسّم فيه أمارات النّجابة، فشغف به، فلما نشأ وترعرع، وصلح لأن يؤدّب أدب الملوك، أحبّ أن يفرد له موضعا بعيدا من العمارة، يكون فيه مقيما، يتخلّق أخلاق مؤدّبيه، ولا يعاشر من يضيع عليه بعض زمانه، فبنى له في البرّيّة منزلا، ونقله إليه، ورتّب له من يؤدّبه بأنواع الآداب العلميّة

(١) ص ٤١.

obeikandi.com

والملكيّة، وأقام له ما يحتاج من أمر دنياه، ثمّ أضاف إليه من هو من أقرانه وأضرابه من أولاد بني عمّه وأمرائه، ليؤنسوه، ويتأدّبوا بآدابه، بمرافقتهم له.

وكان الملك على رأس كلّ سنة يمضي إلى ولده، ويستصحب معه من أصحاب من له عند ولده ولد، ليبصروا أولادهم، فكانوا إذا وصلوا إليهم سأل ابن الملك عن أولئك الذين جاؤا مع أبيه، ليعرفهم بأعيانهم، فيقال له: «هذا أبو فلان»، و«هذا أبو فلان»، يعنون آباء الصّبيان، الذين هم عنده، فكان يعرفهم بإضافتهم إلى أبنائهم. فمن هنالك ظهرت الكنى في العرب، ثم انتشرت، واتّسعت، حتى صاروا يكنّون كلّ إنسان باسم آبنه.

والآن أظنّني بالاستطراد والابتعاد قد شوّقتك إلى الألغاز، وكنت أشرت إليها بطريقة جعلتك تظنّ

أنّي سوف أبدأ بها، ولكني ـ كما رأيت ـ حِدت عن الطّريق، والآن أعود إليها حتى لا تيأس. وهذه طريقة ناجحة للتّشويق، تغري، ولا تعطي، ولكنّها لا توئس. وسنعود بعدها إلى الألعاب إن شاء الله.

أحد الألغاز التي يتسلّى بها الأطفال في الماضي، ويقطعون بها الطّريق، ذاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها هي:

«أنشدك (أي أسألك) عن شيء حياته على الشّرب، والأكل ذاقه عقب ما مات».

يحتار الأولاد عندما يسمعون هذا اللّغز، فهم لا يتصوّرون هذا الشّيء الذي عاش يشرب طوال حياته، ولم يذق الطعام إلا بعد أن مات. تجد الواحد منهم ينظر إلى الآخر بعيون شاخصة، يطلب منه المدد والعون، فتلتقي الحيرة مع الحيرة، والدّهشة مع الدّهشة، ويغوص كلّ واحد منهم في بحر عميق من التّفكير، وتقليب الأمر على وجوهه،

ويـزعجهم هذا لأنّهم لم يتعـوّدوا على التّفكـير العميق، ولا الصّـبر والانتظار إذا اضطروا إليه. يرى المُلغز حيرتهم، فيقول بفرح: أقول؟ أي هل تريـدون أن أكشف سرّ اللغـز؟ أو هل عجزتم؟ فيكابر هؤلاء، ويقولون: «لا»، ويستمرّ التفكير، وهـو تفكير معلّق في الهواء، فليس تحت أرجلهم أرض يقفون عليها، توصّلهم إلى الهدف، ثم يأتي دور رمي الأجـابـات غير الصـائبـة، يقـذف بها قائلوها، رغم معرفتهم ببعدها عن الحلّ، ورغم مداخل الخلل والضّعف فيها، ولكنّ الذي حداهم هو اليأس، ومحاولة قطع الصّمت، فيضحك المُلغز بانتصار، وتلذّذ، وبهجة، ويُبطل ما قالوا بإشارته إلى موقـع النّقص في الجـواب. فيعـودون للتفكير يجللّه الصّمت، وتحيـطه النّـظرات المتردّدة، وفرك الأكفّ والاصـابـع، والتململ في الجلسة، ويدور حديث صامت بين العيـون، مؤدّاه مفـاوضة على التسليم، وينتهي الأمر باليأس، والأقرار بالعجز، والرّضى بالتّسليم بالأمر، والترجّي في سرعة تفسير

المبهم، فيتحرّك الملغز، ويعتدل في جلسته (إن كانوا قد جلسوا في ظل بيت أو شجرة) وكأنّه شيخ في حلقة درس، سوف يلقي درسه على تلاميذه، أو يبتعد ويقترب إن كانوا يسيرون، ويبتعد، ثم يقول لهم: إنّ هذا الشيء الذي أعجزكم هو عصى موسى عليه السّلام. ألم تكن غصنا في شجرة يشرب مما تسقاه من ماء، فينمو على هذه السّقيا، فلمّا قطع هذا الغصن من الشّجرة، وأصبح عصا في يد موسى، فألقاه على حيات السّحرة، أمام السّحرة، التقمها، كما يلتقم أحدكم ويزدرد طعامه.

فينظر بعضهم إلى بعض، ونظراتهم هذه المرّة كانت استصغاراً لأنفسهم. ما أسهل الأمر! كيف لم يعرفوه؟ كيف لم يتنّبهوا له؟ كيف غفلوا عنه؟ إنّه سهل.

ويلتفت بعضهم إلى بعض، يبحثون عمن يكون بينهم قد التقط من أهله الكبار لغزا لم يسمعوه، فتبدو ابتسامة اعتزاز على أحدهم، ويتحرك في مكانه تحرّك المعتزّ بتميّزه، ويقول بملء

فيه: «أنا عندي لغز» أو «حجّاويه» أو «حزّيرا»، والحجّاوية جاءت من كلمة احْج، أي اعرْف، أو اكشف اللّغز، وحزّيرا من إحزر في هذا المعنى نفسه. ويقول لهم:

ياشٍ (ماشيء) شِفْته ينقل شِفْته شِفْت الصايغ في صندوقه؟

فيسقط في أيديهم، ويبدو لهم أن هذا «أعسر» من اللغز السابق، وهم يدركون أنّ مرتكزات اللّغز، إذا قطّع، هي ثلاثة الحروف: الشّين، والفاء، والتّاء. ولكن كيف يصلون إلى غورها؟ وكيف يسبرون عمقها، ويجلون غامضها، ما أقلّها وما أكثرها، وما أقربها وما أبعدها. كيف يعرفون الصّلة بينها وبين المبهم من أمرها، الجملة الأولى واضحة: «هناك شيء رأيته»، فيهزّ الملغز رأسه بالموافقة، والتّصديق على ما أبدوا، ولكن هذا أول البحر، وهو ضحل لا يغطي القدمين، والغبّة تأتي بعد هذا مباشرة، إذ لا يوجد تدرّج. كيف ينقل

هذا الشيء «شِفْته»، فيقفز أحدهم، ظانّا أنّ هناك مغالطة في النّطق، وأنّه عثر على كنز الحلّ، ويقول: «شِفْته»، أي «شِفّته»، «البرطم»، فيقال له: «لا» هي شِفْته وليست شفّته، فيعود خائبا إلى وضعه الأوّل، فيتّفقون على التّحرّك إلى الجملة الثّالثة، ويعتقدون أنّها واضحة، وأنّ الصايغ قد دخل صندوقه، فيقول المُلغز: «لا، كيف يدخل في صندوقه، والصّندوق لا يتسع لقط». فيسلمون لزميلهم بأنّهم عجزوا، وبفرحة غامرة يتأكد منهم أنّهم عجزوا، ويسألهم واحداً واحداً، ويعيد السؤال تطويلا منه لوقت الأنتظار، وتمتّعاً بابقاء سرّ بضاعته مخبّأً أطول مدة ممكنة، كما أفعل الآن معك - يا بُنَيّ - وأرجو ألّا تكون قد قفزت إلى نهاية الصّفحة، ورأيت الحلّ. إن كنت فعلت فقد ضاعت منك لذّة الترقّب، وبهجة الحيرة، ورحلة البحث في أعماق بحار الفكر، ومشغل الصّايغ. ما رأيك في أن أؤجل إعطاءك الحلّ إلى غد، هل تراك تنام اللّيلة؟ وإن نمت هل تراك تحلم به؟ بل ما

رأيـك في أن أتـرك إخبـارك بالحـلّ إلى آخر العام الـدّراسي، ويكـون الحلّ هو هديّة نجاحك؟ إنّي لست بهذه القسوة، لأنّي مررت بمثل الذي تمرّ به، فإليك الحلّ «هنيئا مريئا، غير داءٍ مخامر».

الجملة الأولى واضحة في أنّ المُلغِز رأى شيئا. أما الشِّفت الذي رآه فهو «مِلقَط» يستعمله الصايغ في صنعتـه، يلتقط به قطع الـذهب الصغيرة، أو الكبيرة إذا كانت حارّة. ولعلّها كلمة غير عربية، جاءت من كلمـة «جفت» التّركيّة. وهذا يكشف بقيّة اللّغز، فالمُلغِز ببساطة يقول: «إنه رأى الصايغ ينقل ملقطه، وأن الملقط كان في صندوقه».

وبهذا استرخت الأذهان المشدودة، والأعصاب المتـوتّـرة، وخرجت آهات الرّاحة زافرة تدوّي في الآذان، متقـاطعـة مع النّـظرات التّـائهة المحتجّة صمتا بأنّه ليس كلّ السّامعين من أبناء الصّاغة، أو من جيرانهم، حتى يعرفوا هذا. ولكن الصّمت لا يحتاج إلى ردّ.

ثم يلتفتون إلى الثّالث فيسارع، وقد توقّع ذلك منهم، فيبدأ ببسم الله الرّحمن الرّحيم، مؤمّلا أن يكون لغزه صعبا على زملائه، ومعلنا أنه لو اجتمع أهل الأرض جميعا ليحلّوه ما حلّوه، ولا فكّوا عقد طلاسمه، وهي دعوى يصدّقها الواقع أو يكذّبها، وسنرى، ثم يقول:

«أنشدك عن شيء طويلٍ ومذلوق
دُبّ الليالي في يمينك تشدّه
طار الغراب وصار بالوكر غرنوق
هذاك شيء يوصل الرجل حدّه

«أنشدك» أي «أسألك»، ومذلوق، أي محدّب، وطرفه رفيع، و «دبّ» بمعنى «طوال» اللّيالي بدون انقطاع، وحدّه: أي نهايته.

وبعد أن ألقى إليهم اللّغز، تطلّع إلى وجوههم، ليرى مدى تأثيره عليهم، فوجد أنّ ظنّه قد أصاب مرماه، وأنّ حيرتهم قد بدأت تطلّ برأسها، بدليل آلتفات بعضهم إلى بعض، يطلب الواحد عون

الآخر، ينقل نظراتِه من واحد إلى آخر، وهو ينقل نظراته بينهم بمتعة وبهجة، ويستحثّهم على معرفة الحلّ، ويبادر باتّهامهم بالعجز، قبل أن يمرّ من الوقت ما يبرّر هذا الاتّهام. ولكنّه نوع من الأرجاف، يشوّش به على أذهانهم حتى لا تجد الطّريق إلى الحلّ، ويقطع حبله إن وجد. وهم يستمهلونه بعناد وإصرار، ورغم أنّهم لم تتبينّ لهم بارقة أمل، ولا ضوء صبح، ولا شيء من الصُّوى على الطّريق. فليس أمامهم إلا ظلمة حالكة داكنة، ودجنّة ذات أستار، وغيوم متلبّده، وصحراء بيداء لا نبت فيها ولا معالم. وكل دقيقة تمرّ هي في صالح الملغز، وليست في جانبهم، وأخيرا يستسلمون لإلحاحه، ويطلبون منه الحلّ الآن بإلحاح، بعد أن «وقف بهم حمار الشيخ في العقبة»، كما يقول المثل.

ثم يكشف اللّغز المغمض: بأن الطّويل المذلوق هو اللّحية، وصاحبها يديم امرار يده عليها، واللّحية وهي سوداء أيّام الشّباب تشبه الغراب في

سواده، فإذا ولّى الشّباب، وطار غرابه، وزحف الشّيب بجيوشه، وطغى بياضه على سواد الشّباب فكأنّه الغرنوق ببياضه الزاهي، والشيب علامة بدء الختام، ووصل الإنسان إلى نهايته في هذه الدنيا.

عند هذا يضربون بأيديهم على جباههم، حنقا، وغيظاً على أنفسهم التي أبعدت بهم عن الحلّ، وهو قريب، وأسلكتهم مسالك وعرة، والطّريق السّهل أقرب إلى متناول يدهم. ولكن ما بالهم يلومون أنفسهم وليس من بينهم من خطّ شاربه، فكيف يفكّرون في اللّحية، إنّ هذا اللغز في صعوبته في مستوى الالغاز الماضية، فلا لوم عليهم، إذا لم يأت منهم قصور ينفرد به أحدهم عن الآخر.

ويبقى من الفريق السّائر في طريقه إلى البيت تلميذ واحد، يلتفتون إليه. وكأنهم يقولون له: «جاء دورك»، وهو كفء لأن يساهم في هذا العمل المُلهي، المساعد على قطع الطّريق، الذي لم يبق منه إلا رَبعهُ، وهو يكفي للغز واحد، فيأخذ هذا «عصا

المارشاليه»، كما أخذه السابقون، ويلوحّ بأهميّة ما سوف يقول، سابقا القول، ومهيّئا الجوّ، و «نصف الحرب طهبله» وهو مثل عامّي، لعلّ أقرب شيء له: «نصف الحرب جعجعة». ويبدأ الترقّب - يا بُنَيّ - من جديد، ويبدأ التوقّع، وتوثّب الفكر، وشحذ الذّهن استعدادا. فيقول وقد عيل صبرهم:

أنشدك عن شيء خلق، يلبد إيدى
متجنّس على المخاليق بخلوق
مادام به جلده فهو ما يزيدِ
وإلى فصل جلده طلع منه مخلوق

ورغم أنّ صاحبنا ألقاه بطريقة توحي بأنه متأكّد أنّهم لن يعرفوه، خاصّة وأنه جاء بعد أن أنهكهم المشي، وأضناهم حلّ الالغاز الماضية، أو على الأصحّ أجهدتهم محاولة الحلّ، وأمضّهم الاخفاق المتتالي، والخيبة المتتابعة، والحسرة التي تكررت، كلّما تبين سهولة الحلّ أو قربه، إلا أنّهم هذه المرّة عرفوه، ترى هل تدرّبوا على السّابقات، واكتسبوا

منهـا ملكة، أو عثروا صدفة على طريقة للتّحليل موصلة، فقد قال أحدهم: دعونا نتصوّر، فالشيء هذا خلق أي حيوان، ويلبد اليد، أي تضم عليه اليـد، فاحصروا المخـاليق التي بهذا الحجم. ومتخولق بخلق، أي أخذ صورة المخلوق تدريجيًّا، ولا ينمو مادام في جلده، يعني أنّ جلده حبس له عن النّمو، فإذا تخلّص من جلده خرج منه مخلوق، ما هو المخلوق الـذي يولـد من جلد؟ فصرخ أحـدهم، وقـد سقط على الحـلّ، أو سقط عليـه الحـلّ، واتّضحت الصّـورة في ذهنـه، وتـراكبت أجزاؤها، قائلا: إنّها البيضة والفرخ، أو الفروج، أو الكتكـوت. فأخـذوا يقفـزون من الفـرح، ويتـواثبـون من بهجـة الانتصار. وصاحب اللّغز جامد في موقفه، ينظر إليهم، ويندب حظّه. ولكن يعزّيه أنّ الأيام مقبلة، وللالغاز جولة، ولابدّ أنه سوف يتهيّأ له لغز يعجزهم حلّه، في يوم من الأيّام.

وهناك - يا بُنَيّ - شيء بين الالغاز وبين الالعاب، وهو مسلّ حقّا، ويمتدّ العمل به أيّاما، ولا يعرف

obeikandl.com

في نجـد، وإنما هي لعبة مرموقة في الحجاز، وهو «اليَدَس»، وهو من أجمل الألعاب، لأنه يعوّد على اليـقـظة والحـذر والـتـنبّـه، ويحـارب الغفلة و«السّرَحان». يتّفق أثنان، أو أكثر، على الدّخول في لعبـة «اليدس»، ويبدآن، فإذا مدّ أحدهم يده بشيء إلى آخر، فعلى الآخر أن يقول: «في بالي» يعني أني متنبّه، فإذا لم يقل هذه الكلمة، قال له المُعطي: «يَدَس»، فتحسب عليه، ويعتبر أنّه وقع في المصيدة المنصـوبة، والشّرك الموضوع في طريقهِ، ولك أن تنـظر إلى من وقـع في الفـخّ، وتسمـع صرخـات الانتصـار من المشترك والمتفرج، ولك أن تتصوّر وسـائـل الختل في محاولة شخص إيقاع آخر، هذا يتربّص، وهـذا يحاذر، وهذا يتهيّأ للختل، وهذا يوقظ جميع حواسّه لتتنبّه، وهذا يبحث عن الطّرق التّي تجعل مدّه يده بالشيء المُعطَى تبدو طبيعية، فلا تقابل عينه عين الآخر، خوفا من أن تفضح العين سرّ صاحبها. ومهما كان المُعطَى حذرا فقد يسهو، وقد يغفل، وقد يكون في حالة شاغله، كأن يقول له استاذه: «خذ الكتاب من فلان، واقرأ صفحة

منه» ، فمع رهبة الموقف ، ومفاجأته ، ولأنه لم يذاكر، يقفز ليأخذ الكتاب من زميله فلان هذا ، فينتهزها هذا فرصة، ويعطيه الكتاب، وبهمس شديد، حتى لا يسمعه الاستاذ، يقول له : «يدس» ، فيقع عليه هذا وقوع الصخر، فمع ما هو فيه من همّ وكرب مما طلبه منه الاستاذ يشرب «اليدس» . ويبرز المدرّس إلى فناء المدرسة مع تلاميذه، أو بعضهم وقد شمّر عن ساعديه ، متهيّأً للوضوء للصّلاة ، ويقول لأحدهم : خذ الأبريق ، وصبّ على يديّ الماء ، فيسرع أحدهم ليناول زميله الأبريق ، مظهرا كأنه يريد أن يساعده، وبسرعة البرق، وبصوت خافت أجشَ، يشبه الفحيح ، لما حمل به من أثقال النّصر، الذي شد بعض أوتار صوته، يقول له : «يدس» . وهكذا يحاول الواحد اهتبال مثل هذه المواقف للأيقاع والتّوريط ، حتى يُنقض هذا الاتفاق، أو يموت تدريجيا .

وأحيانا ـ يا بُنَيّ ـ يقضون أوقاتهم ، في تذكّر ما قصّته عليهم أمهاتهم من قصص، فيها من التّربية

obeikandl.com

والعبر ما تحرص الأمّهات على إيصاله إلى نفوس أبنائهن، وتثبيته عن طريق التّكرار، ويردّده الصّغار إعجابا، أو لأنه أجدّ ما لديهم ممّا سمعوه عن أمّهاتهم.

ومن بين هذه القصص ما يسجّل مواقف الشّجاعة والرّزانة، مثل القصّة التي ترويها الأمّهات عن أن «السّعلوية»، وهي جنّيّة بشعة، لما تكوّم على جسدها من الصّوف الخشن، جاءت تسير في ليلة من اللّيالي المظلمة، واعترضت طريق شاب، رزين شجاع، وأرادت أن تخيفه، وظنّت أنه عندما يلمس خشونة شعرها يدرك أنها جنّيّة فيخاف، ويزوغ عقله عن «كرسيه»، ولكنّه خيّب أملها، لأنّه عندما أدرج يده على صوفها قال: «إنه لشعر ضاف» فادهشتها رزانته، وفوجئت برجاحة عقله، وأدركت أنّ سعيها قد خاب، فقالت ردا على ملاحظته: «إنّه لعقل واف». ويُروى أن

جملته : «إنه لشعر كاس»، وجملتها «إنه لعقل راس». وهي كما ترى - يا بُنَيّ - محاولة من الأمّهات لتهيئة أبنائهنّ وبناتهنّ لأحداث الزمن، وأن الفزع لا يأتي بشيء ، بل يضيع أشياء كثيرة، وأنّ الثّقل والرزانة تكسب صاحبها شيئا كثيرا.

ولا أريد أن أبعد بك - يا بُنَيّ - عن مجال للّعب، وما كان يجري فيه، إلاّ إذا نضب ما عندي من معينه، ولا يزال في البئر مستقى. وقد ذكرت لك أن الألعاب بعضها له أدوات، مثل «العجاوي»، «المداوين»، «الكعابة»، «الكبوش»، «وبربر» أو «الملعبة». ومنها ما ليس له أدوات مثل «طَبقَ زيزى» و «السّبت سبّوت»، ومثل «الكَبَت». ولا أريد أن أعدّد ما يدخل ضمن هذا القسم، أو ذاك، ولكنّي تذكرت مثلا مبنيّا على لعبة الكعابة، يردّده لاعبوها إذا لم يكن لدى بعضهم ما يلعب به مع الآخرين، وهو مثل رغم بساطته إلا أنّه يُعطي صورة سوف تجد أنّها مفيدة،

وستجد أنّك سوف تتمثّل بهذا المثل في أمور مهمّة في هذه الحياة. والمثل يقول: «سلّفني وألاعبك»، ومعناه يدلّ عليه، وكثيرا ما «قَشّ» المتسلّف الذي دخل اللّعبة ما مع مسلِّفه، رغم أنّه لم يكن معه شي،ء وخرج منها وليس مع الآخرين شيء. وهي صورة تتكرّر مع لاعبي الكعابة يوميا، وكلّ صغير في ذلك الزّمن يعرفها، فإذا سمعت المثل يقال من الجيل الذي سبق، جيل والدك، فاعرف أن هذا هو منشؤه.

ومرّة أخرى، أرأيت - يا بُنَيّ - كيف خرجنا من لعبة «الأِنِن» إلى التعرّف على المعاجم، ثمّ إلى الألغاز، فانتقلنا من أمر له طبيعة خاصة، هي بكم أقرب، وأحرى بالقبول عندكم، إلى أمر له صفته المختلفة، وهو أقرب إلى أنفسنا، لطول العشرة بيننا وبين المعاجم. إنّ صلتنا بها مثل صلتكم بدليل التليفونات، مع الفارق في المحتوى، والهدف، والحصيلة.

نعود - يا بُنَيّ - إلى الحديث عن الألعاب، وإلى مجموعات اللاعبين من الصّغار، كما سبق أن وعدنا. إذا التفتّ يمينا وشمالا في أحد الأحياء، وملأت عينيك بما هناك من المجموعات الصّغيرة التي لا تزيد أحيانا عن اثنين اثنين، أو المجموعات الكبيرة التي تزيد عن هذا، فقف معهم وشاركهم اللّعب في الخيال، فقد فاتتك الفرصة أن تلعب معهم في الحقيقة. هذا إذا كان سنّك يناسب سنّهم، أما إذا كنت قد شببت عن الطّوق، فاحتفظ بما تتصوّر لأبنائك، وأبنائهم، ان شاء الله.

وإليك شيئا عن لعبة «الضّاع»، يجتمع عدد من الأشخاص، ويكوّنون حلقة، تتّسع دائرتها وتضيق بقدر ما تحويه من الأفراد، يجلسون القرفصاء، وجوههم متقابلة، ينظرون إلى داخل الدّائرة. وبين كل واحد والثّاني منفرَج ضيّق، يحرصون على ألاّ يكون واسعا، حتى لا يجد اللاّعب مجالا لعينه أن ترى ما يجرى خلفه من اللاّعب، الذي مهمته أن يدور خلف الحلقة، وبيده «الطّرّة»، التي هي عادة

«غُترة»، أو حبل مجدول، يخفيه خلف ظهره، أو بين طيّات ثوبه، وقد جُدل أو بُرم، كما قلنا، حتى يكون نافعا ليضرب به، ويكون بمقام سوط لاذع. والشخص في دورانه يحاول، دون أن يلفت النّظر أن يضع الضّاع، أو الطّرّة، خلف أحد الجالسين، دون أن يُحِسّ به، فإذا شعر هذا بأنه قد وضع خلفه أخذه بسرعة، وانطلق يجري خلف واضعه، ليضربه به. وواضعه يركض ليجلس في مكان هذا الذي قام يجري خلفه، قبل أن يمسكه، أو يضربه بالطّرّة، لأنه إن تمكّن من ذلك، قبل أن يجلس في المكان الشّاغر، خرج من اللعبة. وتستمرّ اللّعبة هكذا، حتى يخرج جميع أفرادها، فلا يبقى إلا إثنان، فيحاول كلّ منهما إخراج الآخر بالامساك به، ليصبح هو الفائز.

وتعاد اللّعبة، وتدور هكذا حتى يملّ اللاّعبون، أو يؤذّن المؤذّن لإحدى الصّلوات، أو يحين وقت وجبة الطّعام، أو وقت النّوم، أو يدخل أمر لم يكن في الحسبان. وهذه اللّعبة تحتاج إلى

obeikandi.com

اليقـظة والتنبّـه من جانب، والـذّكاء والحذق من جانب آخر، بل يدخل فيها ـ يا بُنَيّ ـ الغشّ، وهذا مجال للاحتجـاج والصّراخ، فأحـد المقـابلين لمن وضعت الطّرّة خلفه، أو من هو قريب منه، ورأى أنّها قد وضعت يحاول أن ينبّه زميله إلى ما تمّ، حتى يسرع في أخـذها، ويجرى خلف واضعها، وهذا خرق لأصول اللّعبة، وأمر غير مقبول، وقد يعتبر غشّا في أعلى المراتب، وقد يوحي بأن الغاشّ قد ملّ اللّعب، ويـريـد تبريـده، ورفعـه بهذه الـطريقة الملتـويـة. وأحيانا تجد بعض الجالسين يتبع بعينه الشّخص الذي يدور، وقد يلتفت ليرى إن كانت يد اللّاعب بالضّاع «الطّرّة» قد خليت، وهذا أيضاً يعتبر خروجا عن أصول اللّعبة.

وإذا وضع اللّاعب الضاع «الطرّه» خلف أحد الجالسين، وأكمل الدّورة، ولم يشعر به الموضوع خلفه، فإنه يأخذه، ويضربه به حتى يكمل الدّورة إلى مكانه.

ودعني أخـــبرك عن هامش مهمّ لهذه اللعبـة، فالأمّهات يكرهنها، لأنّها تنتهي بتمزيق «الغترة» أو «الإحـرام»، وهمـا غطاء الـرأس، ولو كان الأمر يتـوقف عند إحضارها وقد اتسخت، لهان الأمر، وتسومح في الضّرر المؤقت، مقابل المنفعة، وفرحة الأطفـال، ولكن تمزيق شيء من المـلابس أمـر لا يتسـامح فيه، لرقّة حال النّاس حينئذ وضعفهم. ولهذا فلابد من قرص اذن الصّبي، أو صفعه على قفـاه، أو «دحجه» بين كتفيه، وهذا مهما تتابع لا يعكّر على الصّبي صفو اللّعبة ولذّتها، وسوف تبقى معه فرحتها، وبهجتها، إلى أن يأتي اليوم الثّاني، وقد يحلم بها وهو نائم، وقد يوقظ أهله من نومهم فزعين من صراخه على أحد زملائه في النّوم، فيزيد هذا من حنق والدته، وتقول ألم أقل لك إنّ هذا اللّعب لا يأتينـا بخير: أذًى للملابس، وضياع للوقت في النّهار، وازعاج باللّيل، وشغب مع أولاد الجيران. وتحمّــل الأم هذه اللّعبـة مسـاوئ كلّ اللّعبـات الأخريات، وتجمعها في قضيّة واحدة، وترافعه بها

حتى يبحّ صوتها، وقد يعد بأنه سوف يسمع ويطيع، وهو ينوي أن يصمّ أذنه ويعصي، لأنّ صوت اللّعب و«البهذلة» أقوى صوتا من صوت أمّه وأبيه، إنّه صوت زملائه، وفيه من الجاذبية والسّحر ما ليس في كلام والدته، لأنّ كلام والدته ينهاه ويأمره، وصوت زملائه يدعوه ويرجوه.

وليس هذا هو الجانب المزعج للوالدين فقط، ولكنّ العراك الذي ينبجس بين الصّغار يقلقهما، وهذا العراك يأتي نتيجة اعتقاد حدوث الغشّ، أو المغالطة، وما يتلو ذلك من «مقاضب الشّوش»، و «المفاسلة» وهو اصطلاح في نجد، يماثله في الحجاز ما يقوله أحد الصبيين للآخر «برو» و «أنا مباريك»، وتعني المقاطعة، وتعني أن الشّخص للشّخص «زناخة»، ولو صرّفت كلمة: «زنخ يزنخ» . ورجعت إلى المعجم ربما اهتديت إلى عمق معناها! ويبقى الشّخص «مزاعلا» زميله أو «مباريا» له إلى أن يملّ أحدهما، أو يحتاج إلى الآخر، فيبدأ أحدهما «يخاذي» ويحجل حول الثّاني من بعيد،

obeikandi.com

ويتقرّب منه تدريجيا دون أن يهين نفسه، وكلٌّ منهما يعرف ما في نفس الآخر، ويجلس بجانبه، وينبش الأرض والتراب بعود يجده في الأرض، وما أكثر الأعواد، وما أكثر التراب، فالاسفلت لم يعرف في تلك الأيام في جميع أنحاء المملكة. ثم بعد فترة يجد أحدهما كلمة يمهّد بها، وقد تكون تعليقا على منظر رجل مرّ أمامهما، وغالبا ما يكون الحديث في صورة «غِيبة» فالرجل أعرج أو أحدب، ثم تنطلق الكلمات ما بين قول وجواب القول، ثم ينسجمان في الحديث دون أن يشعرا، وقد يلحظهما أحد، فيعلّق بأنّ فلانا وفلانا «اصطلحا»، وزال ما بينهما من «وقفة نفس» أو جفوة.

وليس هناك - يا بُنَيّ - في اللّعب بين هؤلاء الشّباب رهان عميق، وإنّما رهانهم دائما يدور حول الأيلام أو تفاديه، و «الطّرّة» هي الأداة، فإذا تراهنا فمن عشر ضربات بها، أو عشرين ضربة، يختلف في ضربها شخص عن شخص، والضّربة تعتمد على قوة الجسم، وعلى طريقة الجلسة التي يجلسها

الضّـــارب، وأحيـانـا مدى حنقـة، ومـدى قرب المضروب إلى قلب الضارب أو بعده، ومدى حرقته عليه. وقد تعزّ الغتر أيام الصّيف، فالصّيف ليس مثـل الشّتـاء، ففي الصّيف تختفي الغتر، ويختفي الحـذاء، حينئذ يتغيّر الجزاء أو العقاب إلى طلوع جبـل، أو الرّكض على رجل واحدة: «مَشي مَشِي على رجـل، والرجل الثانية مكسورة»[1] أو نزول قليب، ولم تكن الآ شربة الغازيّة معروفة وإلّا كانوا لجؤا إليهـا. وقـد يكـون الجـزاء، خاصّة إذا كان الصّبيان لعبوا لعبتهم وهم في الطّريق من البيت إلى المـدرسـة، أو من المدرسة إلى البيت، حملَ حقيبة الغـالب، ومعهـا بعض التبكيت والهـزء، مما يجرّ أحيانا إلى العراك. ألم أقل لك ـ يا بُنَيّ ـ إن الشّيطان ينجـح مع الصّغـار مثلما ينجح والده مع الكبار، فأسبـاب العراك و «المضاربة» و «المهاوشة» أقرب إلى الأولاد من تنـاول الـوجبة، ولعلّ دم الشّباب

(١) يرفع أحدهم رجلا ويقفز بالأخرى، مسافة معينة. ويردد هذه الجملة.

الذي يجرى في عروقهم، فورانه سريع، «يطيشه» أقلّ محرّك، وأدنى عامل.

وإذا تحدّثنا عن اللّعب، وما فيه من طرق، وما يلزمه من أدوات، فإنه لابدّ من الأشارة إلى أنّ اللّعبة تتوقّف أحيانا على سِنّ اللاّعبين، واتقانها كذلك يتبع النّضج أو عدمه. وقد تكون اللّعبة بدائيّة، لتتناسب مع سنّ اللاّعبين الذين لا يستطيعون - يا بُنَيّ - الاستمتاع بغيرها، فإذا سقت لك بعض هذه الألعاب البسيطة فلي هدفان: أحدهما أنّي أسجّلها حتى لا تضيع، وقد كادت أن تختفي، بل إنّ بعضها لم يعد معروفا، ومن المؤلم أن نرى مظهرا من مظاهر الماضي يختفي، ويطويه النّسيان، ويلفّه التّطوير بغطاء سميك. والهدف الثّاني أنّك سوف تجد نفسك في يوم من الأيّام مضطرّا عندما تجلس مرغما، تلاعب آبنك، أو حفيدك، أن تبحث له عن شيء يناسب سنّه، وأن تَنزل لذلك إلى مستواه. حينئذ تدعو لي، وأنا لست في عجلة من أمري لمطالبتك من الآن بالدعاء،

فسوف أنتظر هذا الدعاء حيّا أو ميتا، لأنّ دعوتك حينئذ، إن تذكّرت، سوف تكون مخلصه، أما الآن فأخشى أنّك معي، ولست معي، وأنّك قريب بعيد، ولو لمّحت لك بقصّة لدبّت فيك الحياة، ولا انتعشت، وأصبحت كلّك حواسّا، يقظة متوثّبة، ولاضطررت أن أكون حذراً فيما أقول، حتى لا أقصّر عن مرمى المنطق، أو أقدّم ما يجب تأخيره، أو أؤخّر ما يجب تقديمه.

ولا أشكّ ـ يا بُنَيّ ـ أنّك الآن في انتظار قصّة، ورغم أن اللّعب والحديث قد يكون ممتعا، إلاّ أنّه لا يعدل القصّة عندك، والقصّة ليست في «الخرج»[1]، أو جاهزه في «العيبة»[1]، يمدّ أحدنا يده إليها ويخرجها ويعرضها، بعد أن يختارها من عدد من مثيلاتها، أو ينتقيها من مخزون من شبيهاتها، وكما رأيت فيما مضى، أحيانا تأتي القصص تباعاً، وأضطرّ أن أوقف سيلها، وأعترض

(١) هما وعاءان من جلد أو صوف أو هما معاً، يضع فيها راكب البعير زاده وأشياءه، وقربهما منه وهو راكب يجعلهما مضرب المثل في سهولة التناول.

سبيـل زحفهـا، حتى لا تخرجنا بتتابعها بعيدا عما نحن بصـدده مما هو أسـاسي في حديثنـا، وأحيانا تستعصى كالعقاب في قنّة جبل.

على أيّ حال، لن أقصّ عليك قصّة ـ يا بُنَيّ ـ إلا بثمن، وهذا الثمن هو استماعك للنّصيحة أدخلها في حديثنا افتعالا، وهي: عليك أن تؤثر أقرباءك ممن هم في سنّك على نفسك، وأن تقدّمهم عليها، وأن تريد لهم ما تريد لنفسك، وأن تنسى نفسك لتـذكـرهم، وتضيّق عليهـا لتـوسّع لهم، وتتعبها لتريحهم، فإذا فعلت فقـد وصلت رحمك، وكنت أنت وهم مثل بطلي القصة الآتية:

وجّــه هشــام بن عبـد الملك ابنـه على الصّائفه، ووجّه معه آبن أخيه، وأوصى كل واحـد منهما بصاحبه، فلما قدما عليه، قال لآبن أخيه: كيف رأيت آبن عمك؟ فقال: إن شئتَ أجملتُ، وإن شئت فصلتُ! قال: بل أجمل. قال: عرضت بيننا جادّة، فتركها

كل واحد منّا لصاحبه، فما ركبناها حتى رجعنا إليك[1].

والأفكار - يا بُنَيّ - كما ترى، مثل تلّ من رمل، كلما أخذت منه تهاوى الرّمل ليملأ مكان ما أخليت، فإن استعجلت في هذا أعجل الرّمل في الاندفاع، وإن تمهّلت تأنّى وتمهّل، وإن أخذت قليلا حلّ محلّ القليل قليل، والكثير كثير. وقد عقدت العزم (لاحظ الاستعارة في هذا التعبير، والاستعارات صور، وتذكّر المجاز الذي حدثتك عن اهتمام أحد المعاجم به، فالعزم كما ترى عقد كما تعقد «الغترة» أو الحبل، أو كما تعقد «الصّمادة» عندما تنوي أن تضرب بها أحدا) أن استوعب كل ما يخطر ببالي عن هذه الالعاب، وكلّ ما هو قريب إلى ذهني من هذه المسلّيات المثقّفات الملحّات على التّسجيل والحفظ. وكما قلت من قبل، إذا كان بعض هذه الالعاب بعيدا عن سنّك، ويقع خلفه،

(١) العقد الفريد ٢/٤٣١.

وأنك تعدّيته وتركته، ولم يعد لائقا بك، في نظرك ونظر الآخرين، فهي بضاعة مزجاة، تهدى إليك، لتوصلها في يوم من الأيام إلى آبنك أو آبن آبنك، وسوف إن شاء الله تدعو لي، لأني وضعت في يدك، ويد أمثالك، سببا من أسباب السّعادة تتيحه لأبنائك وأبنائهم. وهي بضاعة كما ترى - يا بُنَيّ - لا تكلفك ثمنا للخزن، ولا أرضيّة جمرك.

من هذه الأمور التي كان الصّغار في الماضي، يزجون بها الوقت ويقتلون الفراغ، ويبهجون بها نفوسهم، ما كانوا يلجؤون إليه لبساطته: يجلس أثنان متقابلين، ومعهما شيء يمكن أن تضمّ عليه أصابع اليد الواحدة، كأن يكون قطعة عملة صغيرة، أو نواة ثمرة مثلا، ويعمد أحدهما إلى إخفاء يديه خلف ظهره، مخفيا النّواة في إحداهما، ثم يمدّها أمام من يلعب معه، ويطلب منه معرفة مكان النّواة منهما، وقد أحكم قبضة يديه، محاولا بكلّ ما يملك من أيهام أن يحيّر اللاّعب، ويحاول أن يوحي إليه بطريقة أو أخرى، بأنّها في اليد التي

ليست فيهـا، كأن يشـدّ شدّا واضحـا على اليـد الفـارغـة، ويحـاول أن يكـون امتـدادها أقلّ من الأخـرى، ويجعلهـا تتردّد بين الامتداد والقبض، ويصل به الأمر، أحياناً، أن يمدّ التي فيها النّواة، ويقـول هل قلت إنّها هنا، أو كأنّي سمعتك قلت هذا. وهذا الأمر قد ينفع إذا كان لعبهما لأوّل مرّة، أمّا، إذا كان كل منهما قد عرف طريقة الآخر، فهذا لا يجدي، وما على المختار إلّا أن يجتهد.

وللّذي يبحث عن النّواة، في إحدى القبضـتين، طرق يعتقد أنه بها يمكن أن يستدلّ على مطلوبه، بعضها حسّي، وبعضها نفسي، أما الحسيّ فبعضه قد يفيـد، وبعضه ما هو إلا تهيئة للأمر النّفسي، وأوّل خطوة هي جسّ القبضتـين، وعنـده أنّه إذا كانت القبضة قويّة في إحداهما فهذا دليل على أنّ داخلهـا شيء ، لأنّ الأرتكـاز، ونـظريّـة الثّقل، توجب هذا، ولكن لا يغيب عنه، خاصّة إذا كان قد عرف طرق صديقـه في التّضليـل، أنّ تشديد القبضة قد يكون مصطنعا، ويضيع الأمر بين قبض

وشـدّ وتحـايل، وحلّ التّحايل، وفكّ رموزه، ولا يبـقى إلا النّــواحي النّفسيــة، فإن نفعت، وإلا الحدس، والتخمين، والحظ.

ولتهيئة الجوّ النّفسي يعمد الباحث عن النّواة إلى جسّ شحمتي أذن صاحبه، كما فعل في لعبة سابقة، موهما أنّه إذا وجد أحداهما أقسى من الأخرى فهذه علامة مرجّحة، أو قاطعة أحيانا، في أن النّواة في اليد التي تلي شحمة هذه الأذن، والحقيقة أنه، وهو يقـوم بهذه الحركة، يصرف انتباه زميله عن يديه، ويهتمّ بأذنيـه، وزميله ليس مثل الحصان (اخترت الحصان رغم قصر أذنيه!) يستطيع أن يحّركهما أو يشدّهما. وبهذه الخطوة يتيح فرصة لليدين أن تكونا بوضع طبيعي، وتبتعدان عن التشنّج الذي أراده لهما صاحبهـما إمعانا في التّضليل، وقد يصدق حدس المخمّن نتيجـة هذه الخطوة، فإن نجح فإنّ النّواة تنتقل إليه، وتستمرّ اللّعبة إلى أن يقطعها قاطع.

وتكملة الصّـورة لهذه اللّعبة، أنّ الباحث عن

النّـواة، في سبيـل العثـور عليهـا، وتهيئـة المجال النّفسي لايجاد العلامات التي يحتاجها للاستدلال، ينقـل يده، في مرحلة من المـراحل، بين اليدين، قائلاً كلمة مع كل نقلة من الجملة الآتية: «حادي بادي سِيــدي محمـد البغدادي، شالـه وحـطّه كلّه بهادي»، وهـذه الجملة، وهـذه الحركة، تؤكّد أنّ الأمر لا يعدو التّخمين والحدس، وإلا فالسيّد محمد البغـدادي، لم يتدخّل في وضع النّواة، ولا يدري عنها، هذا إذا سبق أن له وجودا البتّة، إن لم تكن أوجــدتــه السّجعـة، التي أعـطتـه هذا الـدّور. والسّجعة ـ يا بُنَيّ ـ قد تكون مسؤولة عما هو أكثر من هذا وأهمّ. لقد عزلت السّجعة يوما من الأيّام قاضي قم. فإن لم تكن قد سمعت بها، فملخّصها: أنّ أحـد الخلفاء، أراد أن يسجع، وابتدأ الجملة بقـولـه: «يـا قاضي قم، قد عزلناك فقم»، فقال القـاضي: «والله لم تعزلني، يا أمير المؤمنين، وإنما عزلتني السّجعة».

على أيّ حال، عند الفحص والتمحيص في هذه القصّـة، وعند التمعّن والتدبّر في عقليّة الخلفاء، ومنـزلتهم، ومنـزلة القضاة، يطلّ الشكّ واضحا بجبينه عملاقا، في أن القصّة مختلقة، وقصد منها طرافتها، وليس فيها من الحقيقة إلا مجرد عناصرها: الخليفة والقاضي وقم. أما الحبكة فيحوطها الشّك.

ولا نريد - يا بُنَيّ - أن نقترب من بحر السّجع، فبحـره عميق، وليس له شواطئ قريبـة، ويحتاج الغوص فيه إلى أداة متقنة، وعدّة متكاملة، لأنّه فنّ له تاريخ، وله صور، وللأدباء في العصور المختلفة فيه آراء، لعلك في يوم من الأيام تمرّ بها. ولا أجرؤ الآن أن أفتح لك نافذة على السّجع خوفا من أن تهرب منّي، قبل أن تعرف عن طرافة هذا الفنّ، ولو انتظرت قليلا فقد يعجبك السّجع، خاصّة ما كان منه في مرحلة قوّة اللّغة، وبُعدها عن التكلّف. أو لعلّك تعجب بسجع الكهّان، واعجابك به ليس لأنّـه بعيـد عن زمنـك، ويدخل في نطاق الآثار،

ولكن للهدف الذي استوجبه، وهو التّأثير على النّاس في وقت تكون أنفسهم مهيّأة لذلك.

نعود - يا بُنَيّ - إلى الألعاب، ونبتعد عن سجع الكهّان إلى سحر يقوم به الأطفال، لا تعجل عندما تسمع كلمة سحر، فكلّ يأتي بحركات يوهم أنّها سحر، حتى الأطفال، وقد حذّرتك عدّة مرات في ألّا تستهين بهم، فلهم من الذّكاء المفرط، إذا أنصفناهم، واستمعنا لهم، ما يدهش. ما رأيك في اثنين يجلس أحدهما أمام الآخر وفي يده نواة، وقد وضعها في يده ليراها الآخر رؤية واضحة. تزيل أي شك في أنها في يده اليمنى، ثم يقبض عليها يده، ويُرى صديقه، وهو يمرّر يده اليمنى من عضد يده اليسرى إلى ذراعها إلى قبضتها، وهو ينفخ في هذه اليد موهما زميله أنّ هذا النّفخ إنما هو لمساعدة النّواة، لتسير داخل الذّراع والعضد، وبعد عدّة رحلات لليد، يفتح قبضة يده اليسرى، فيجد الآخر أن النّواة فعلا قد انتقلت إلى يده اليسرى، فيفتح فمه دهشة لهذا العمل السّحري العجيب،

وما درى أن صديقه الذي كان غالبا يكبره بسنة أو سنتين أو أكثر، قد انتهز فرصة النّفخ، «فشفط» النّواة إلى فمه، ثم مرّرها بطريقة سريعة، وهو ينفخ اليد الأخرى إليها، وهكذا تم السّحر للسّاحر.

وننتقل - يا بُنَيّ - إلى لعبة أخرى: تجد ولدين أو بنتين قد جلستا متقابلتين أو متقابلين، وقد وضع كل واحد يده اليسرى على الأرض، وفرّج بين الأصبع الشّاهد والخنصر، ثم لامس بهما أصبعي الذي أمامه، فأوجد بين الأربعة الأصابع طريقا مقفلا، وشكلا يشبه شكل «المعين» في الهندسة، ثم يدرج أحدهما شاهد يده اليمنى في هذا المعين، جيئة وذهابا قائلا: «حدارجا بدارجا، من كل عين دارجا، والحبّة حبّة اللّولو وتلالي مضرب الدّيك، ياديك حسن الأدياك، طار الشّفَّح مع اللفَّح، لقيت عريبين، ياكلون ردّتين، أكلت معهم لقمتين، وقلت يا عمّي يا أبا حسين، كم على عيد رمضان؟ سبعة أيّام تمام، وحاديها وباديها وضرب

القوس يعدّيها، حْدَيّ بْدَيّ، يا ناصر دَيّ، أحذف قبّـون إبن قبّـون، غزيت للشّـام، وْجِبت ظْبَيّ، وأكلته نيّ، وجان الذِّيب، حمر منقوش، يشد الكور على الباكور».

وينتهي الأصبـع الشّـاهـد، الذي أخذ يروح ويجيء ، والجملة تتـلى، عند طرفي «المعين» باتجاه الشخصين، جيئة وذهابا بحركة مكوكيّة. ثم يبدأ دور الذي انتهت عنده آخر كلمة، ويستمرّ اللعب فترة طويلة، حتى يتقـرر إنهاؤه باتّفـاق الاثنـين. ولاحظ ـ يا بُنَيّ ـ أني تصرّفـت قليـلا في كلمـة «مضرب الدّيك» بتغيير حرف واحد دون أن أخلّ بوزن الكلمة، والسبب هو إخراج الكلمة من حيّز البـذاءة، التي يحلو للصغـار، أحيانا، أن يحوّروا الكلمات إليهـا، اقتسـارا و«عفـرتة» لأنّ الكلمات البـذيئةَ تُدخل البهجة إلى نفوسهم، وتستدرجهم إلى مزيـد منها، كلّ منهم يدلي بدلوه فيها، ولعلّ سبب ذلـك هو الانـطلاق، الذي تتسم به طبيعة الـطفـولـة، وهم يحرّفـون الكلمات، ويغـيّرون

صورها، فتتبدّل معانيها، وتنقلب إلى شتمٍ وسبّ، بعد أن كانت مدحا وتقريظا، وتصبح نابيةً بعد أن كانت مؤدّبة ولائقة، لأنّهم يريدونها أن تتناسب مع جوّ المرح والضّحك الذي يطربهم، ويدغدغ عواطفهم وقلوبهم، أو جوّ التهكّم والاستهزاء، وهو يؤدّي إلى النّتيجة نفسها، وأحيانا اتّجاهم هذا يجعلهم يخطفون الكلمات ممن يلقيها من الكبار خطفا، لأنهم يريدون الكلمة التي توهّموا أنّها ما قاله القائل، أو لأن معنى الكلمة الأصليّة عزّ عليهم وتمنّع، فلم يفهموه، أو لأنّ الكلمة صعبت عليهم في نطقها فنحتوا منها غيرها مما سهّل عليهم لفظها، ووضح لهم معنى يعجبهم ويطربهم، ويأتي بالنتيجة التي يريدونها:

أسمع - يا بُنَيّ - هذه القصة :

مرّ شبّان في إحدى مدن نجد يركضون، في طريقهم إلى خارجها، أو إلى إحدى «الحارات»، وكانوا ينشدون الجملة الآتية:

«الحـربلّه درج درج، لابـده من صفعة فرج» (وكلمـة صفعة كلمة مؤدّبة نحتّها لك من الكلمة الأصليـة البذيئة التي كانوا ينطقونها، وتمّ لي هذا بتقديم حرف وتأخير آخر).

وكـان هنـاك عالم من أكبر علماء تلك المدينة، جالسا عند صاحب دكان هناك، فعندما سمع هذه الجملة ابتسم، والتفت إلى صاحب الدكان، وقال له:

لقد صرف هؤلاء «المُصْلَحون» الجملة الأصليّة الجميلة، بما تحمله من عظة وحكمة، وشوّهوها، ونقلوهـا من مظهرهـا الجميـل إلى هذا المـظهـر البذيء، فأصل الجملة:

«الحرب إلى (إذا) «مِنُّه» دُرِّج درج، لابدّه من ساعة فرج».

وآخرون صغار سمعوا أكبر منهم ينشدون:

«هيّا بنا هيّا بنا . . . نحمي البلاد بروحنا . . . ونعزّها بنفوسنا».

obeikandi.com

فعـزّت عليهم كلمـة «نعـزّهـا» نطقا ومعنى، فجـاؤا ببـديـل لها يتنـاسق مع مستوى عقولهم، ومنطق تفكيرهم، فقالوا: «ونعوصها». وهذه كلمة ليس لها معنى، إلا أنّ نطقها يوحي لهم بأنها كلمة نابيـة، وتلفت النّظر، وتوائم ما يحبّونه من كلمات تجلب سخط الكبـار، وكـأنهم يريـدون إثارتهم، ليروهم في طور الخـارج عن صوابـه واتّـزانـه ورزانتـه، وفي صورة المنفعـل المتشنّـج، ولعلّهم يعجبـون بهذا المنـظر، ويتلذّذون بهذه الصّـورة، لإدراكهم أنّهم السّبب في رسمها، وأنّ ضعفهم لم يعجزهم أن يؤثروا هذا التأثير.

وفي مكّـة تسمع من يقول لآخر: «لا يا تَنْق» وهي تحريف لكلمة «لا يا شيخ»، تقال لا عجزا عن نطقها الصّحيح، ولكنّها تقال في موقف أقرب إلى التبكيت أو الاستهزاء بين الصّغار، وأصبح الكبار يستحسنونها فيقولونها.

هذه ـ يا بُنَيّ ـ طبيعة الصّغار في ذلك الزّمن،

وأؤكّد أنّها لم تتغيّر في حقيقتها، وإن تغيّرت في مظهرها، ولو فكّرت في جيلك لوجدته قد سار في طريق مماثلة، فتتبّع ما كنتم تقولونه تحت هذا الظرف، تجد أنّه على النّسق نفسه، فطبيعة الصّغار أبعد عن التكلّف، وأقرب للصّلف، تجدها كذلك في كلّ زمن، وهي، كما قلت، إن لبست ثوبا مختلفا فالحقيقة تحته متّفقة.

نعود - يا بُنَيّ - إلى الحديث عن الألعاب، وما دمنا، رغما عنك، نحاول أن نستقصي ما تخزنه الذاكرة، فسنسجّل ما نستطيع اقتناصه منها:

يمرّ أحد الصّغار خلف أحد الجالسين منهم، وبهدوء وخفّة يضع ريشة أو ندفة قطن، على رأس الآخر، في غفلة من ذاك، فيقول واضع الرّيشة، أو من رآها توضع: «وش على راسك يارورو؟» و «وش» أي: «ماذا» إشارة إلى ما تمّ فعله، دون أن ينظر إلى رأس من وضعت على رأسه الرّيشة، حتى لا يعرف ذاك أنّها على رأسه ويبقى الأمر محيّرا للجالسين، فكلّ واحد يظن أنّها على رأسه، ويبقى

obeikandi.com

الأمر مجالا للضّحك ممن عرف من هي على رأسه، حتى تكتشف.

وما أصعب أن تكتشف، لأن كلّ واحد يحاول أن لا يظهر أنه يظنّ أنها على رأسه، لأنها إذا لم تكن على رأسه، وحاول أن يمدّ يده على رأسه، ولم يجدها، ضجّ الباقون بالضحك، لأنّهم نجحوا في إيهامه له. وإذا لم يمدّ يده فقد تكون على رأسه. والمَخرج من هذا هو أن يحاول بعضهم أن يطأطئ رأسه موهما أنه ينظر إلى شيء في الأرض، مؤمّلا أن تقع الرّيشة أمامه، أو يرفع رأسه لينظر إلى السّقف، مؤملا أن تقع خلفه. أما من هو «رورو»، أو ما معنى الكلمة، فالله أعلم، فهي مما التقطه الأطفال، جيلا بعد جيل، ولا تتوقّع - يا بُنَيّ - أنّ أحدا منهم يهتمّ بالسؤال عن أصلها، أو يبحث عن مصدرها.

لعلّك تنبهت إلى ما قلته لك من أنّ الجالسين، المراقبين لوضع الرّيشة على رأس أحدهم، يحاولون

ألّا ينـظروا في اتّجاه من هي على رأسه، إمعانا في التّضليــل، وهـو أمـر نفسي مهمّ، ويلعب دورا بارزاً، أحياناً، في أمور المجتمع، ويتبيّن أثره، في المجـالس التي تضم عددا من الأشخاص، يدخل داخلٌ هذا المجلس، فيجلس، وقد لا يعرفه بعض الحاضرين، فيميل شخص إلى من بجانبه، ويسأل عنـه، وبمجرد أن يطرح السّؤال يلتفت المسؤول جهـة المسؤول عنـه، فيجيب السّـائـل، فيعـرف المسؤول عنه ما تمّ بين الاثنين، وأنّ الحديث كان عنه، نتيجة لهذه الالتفاتة. وأحيانا يتكلم اثنان في مجلس، فيسرقـون النّظر إلى شخص، يتنبّه لهم، فيعرف أنّهم يتكلّمون عنه. فانْتَبِه لهذه، ففيها ـ يا بُنَيّ ـ احراج ما بعده احراج.

هذه الألعـاب، وهـذه المـظاهـر اختفت اليوم واختفى معها غيرها، ولم يبق منها إلا قليل في أذهان النّـاس، ولعلّها أصبحت بحديثنا جزء من تاريخ بلادنا في هذا المجال.

وليست وحـدها ما اختفى من السّاحة، فهناك مظاهـر أخـرى، فهناك مظهر طريف اختفى ـ يا بُنَيّ ـ في نجد، وكان يخصّ الصغار، اختفى هو وما يعتمد عليه في وجوده، أو تلاشى هو ومحيطه، كان وقتـه عنـدمـا يبنى بيت طين جديد، أو حينما يجد الطّفل طينة على أثر مطر، أو طينة مهيأة لعمل ما، كأن تكون خلطة طين «لتشبيع جدار» أي «تلبيصه» أو «تنعيل» أرض، وهذه «ترويبة» من الطّين توضع على سطوح المنازل بعـد أن يكـون المطر انهكها وكشط منهـا طبقـة، والتنعيلة تعـويض لها. يأتي الصغـير بأنـامله الـرقيقة، وكأنّه لم تعجبه صفحة الجدار المنعّمة، ويلتفت يمينا ويسارا، ليتأكد أن لا أحد يراه، خاصّة أصحاب الشّأن، ولا يدري أنّ أهله، إن كان عمله هذا تمّ داخل البيت، يعرفون مغـرس أصـابعـه. يغـرز الصّبي أصبعيه الشّاهد والأوسط من يده اليمنى في الجدار، تاليا العبارات الآتية، وهو ينقل أصبعيه من مغرس إلى مغرس:

«أرنــب نطّت، من بين ثنــتــين
تحســب تلقـى، عشــر وثــنــتــين

ثم يعـدّ الحفر التي أحدثتها أصابعه، فيجدها زادت عن الاثنتي عشرة، أو نقصت حسب سرعته في العـد أو بطئـه، وهـو يحفرها. فيعيد الكرّة في غرس أصبعيه، أملا أن يصيب العدد الذي يتناسب مع ما تقوله الكلمات. وقد يؤدّي به هذا، دون قصد لذلك، أن ينقش صفحة الجدار السّفلى، ويزخرفها بفنّـه الـطفـولي هذا، ولـولا قصر قامته لأتى على الجدار بأكمله، خاصّة إذا كان معه فريق مثله من المخرّبين.

وبعض الـرّجـال الكبـار، إذا مرّوا من جانب جدار قديم به مثل هذا الوشم أو الكلف، لا يسعهم إلّا أن يبتسمـوا إمّـا لأنّهم يتذكّرون الزّمان الذي كانـوا يقـومـون فيـه بمثل هذا العمل أو لأنّ ما ينظرون إليه الآن كان بفعلهم هم أنفسهم عندما كانـوا صغارا، وما الجدار اليوم إلا متحف حافظ لهذا الأثر.

obeikandl.com

وأرجو ـ يا بُنَيّ ـ ألّا يحاول أحد أطفال اليوم أن يقلّد أطفال الأمس في هذا العمل، فمثل هذا لا يناسب جدار البيوت اليوم، لأنّ المنظر المقبول حينئذ في جدار الطّين نشاز في جدار الاسمنت، ولو فعل أحد هذا اليوم فانّه لا بدّ من إعادة تنعيمه، ولا ينال الآباء من ذلك إلا الخسارة، وضياع الوقت، واحتراق الأعصاب، «وتعكنن» المزاج، لا لأنّ الآباء اليوم غير الآباء بالأمس، في سعة الصدر، وتحمل تصرّفات الصّغار، ولكن لأنّ مجالات لعب الأطفال اختلفت، وتنوّعت، وتوفّر لهم ما يجعل مثل هذا العمل بدائيّا وعبثا، لا لهوا وتسلية، وصبيّ اليوم في نظر آباء اليوم مثل نظر بعض آباء الأمس! يجب ألا يعثر عليه ساذجا أو بدائيا، وهو يرفل في وسائل الحضارة، وتحيط به أسبابها، وتعيش معه، ويعيش معها. يريدونه ـ خلافا للقوانين التي وضعها الله لهذه السنّ ـ أن يكون رجلا بمجرد أن يبدأ المشي على قدميه.

وختام مسك الألعاب ـ يا بُنَيَّ ـ سيكون لعبة من مكّة المكرمة وهل هناك مسك أطيب من ذكر مكّة ـ شرفها الله، يعطّر فم المتكلّم، وآذان السّامع. لعبة عاصر أبوك غروب شمسها، وأفول نجمها، وكانت لعبة للشبّان الكبار نوعا مّا، ويلعب الحظ فيها دورا رئيسا. لأنه يدخل في بعض مراحلها، وقد يأتي من الصّدفة ما يكون في صالح اللاّعب، أو غريمه. ولكن أهمّ من هذا الجزء الجزء الآخر الذي يعتمد اللاّعب فيه على إِعمال فكره، وكدّ ذهنه، والتّخطيط الذّكيّ في تحريك أحجار اللّعبة. وهذه اللّعبة، لهذا تعتمد في مجملها على توفّر صفاء الذّهن وحدّة الذّكاء، ومخزون التجارب، مما يساعد اللاّعب على الرّبح، وتجنّب الخسارة.

اسم هذه العّبة: «الطِّيْبَان» جمع «طابَه»، وأدوات اللّعب الرئيسيّة فيها أربع قطع من الخشب المخروط، عرض القطعة ثلاثة سنتيمترات، وطولها عشرة تقريبا، وهي بشكل الموزة، ولكلّ قطعة من هذه القطع وجه وقاعدة، أو أسفل

وأعلى، أو وجه وظهر «قَفَى»، يلوّن الظّهر باللّون الأحمر أو الأبيض، أما الأسفل فيبقى بلون الخشب الأصلي.

ويحفر في الأرض أربع حفر صغيرة بالعرض، ويحفر ست أو عشر حفر بالطّول، وتكون الحفر الطّوليّة، عادة، بعدد اللاّعبين، ويوضع في كل حفرة من الحفر العرضيّة فقط حجر، ويسمى «الكلب»، والحفر الوسطى هي مجال اللعب، وهي التي تتحرّك فيها الاحجار، ترى هل سمّي الحجر كلبا لأنه يقضي على ما لدى الآخرين، ويأكل نصيبهم. إنْ لَعِبتها - يا بُنَيّ - ورأيت من نهم الاحجار ما يجعلك توافق على هذا التعليل فيها، وإلاّ فابحث عن السّبب في التّسمية. ويفيدك في التّرجيح أن تذكر ما قلناه، منذ قليل، عن مهارشة الكلاب بعضها لبعض. يبدو - يا بُنَيّ - أنّ الكلاب والصّغار لها دور مشترك ومتّصل في هذه الحياة، فإنّه إن لم يكن للكلاب وجود معهم في الحقيقة وضعُوه لها في الخيال.

تجرى اللّعبة بين فريقين، وتجرى بالتّساوي بينهما، وكل فريق له رئيس، يقوم بتحريك «الكلاب» في الحفر الوسطى. وتبدأ اللعبة بأن يقوم أحد اللاّعبين برمي «الطّيبان» إلى أعلى، ويتركها تقع على الأرض، فإن وقعت «الطيبان» على ظهرها قيل عنها «ستّة»، ويحرّك الفريق اللاّعب أحجاره بهذا العدد. وإذا وقع طاب منها على وجهه بدلا من ظهره وبقية الطيبان على ظهرها قيل عنه «طاب». ولهذا قيمة كبيرة في العدد، فيه يستطيع اللاّعب أن يجتاز خمس حفر. أمّا إذا وقع اثنان على وجههما، واثنان على ظهرهما فيعبّر عنه بـ (دو) أي اثنين.

وينجح اللاّعب الذي يستطيع أن يُخرج (يقتل) جميع حجارة الفريق الآخر، ويتم ذلك عن طريق تحريك الحجار «الكلاب»، كلابه هو، على أثر خطّة محكمة، مع استفادة ذكيّة ممّا تأتي به صدف الرّميات للطِّيبان.

obeikandl.com

وبهذا نختم ـ يا بُنَيّ ـ ما أردنا أن نثبته في ذهنك من ألعاب كان يلهو بها جيل آبائك، وأرجو أن تكون قد ألممت إلماما كاملا بما كان عليه شباب تلك الأيام، وما كانوا يقضون وقتهم فيه، ويعطيك ما قلناه فكرة، سريعة، ولمحة خاطفة، عمّا بنى أبدانهم وعقولهم، وساعد على تكييف تفكيرهم، ووجّه سيرهم، فأوصل إنجازهم إلى ما وصل إليه. ولعلّك لاحظت التّلاحم بين جيل آباء ذلك الزّمن وأبنائهم، وما كان يكنّه كل واحد منهم للآخر، ولاحظت ما قد يكون طرأ على حياة النّاس بعد ذلك من تغيّر واختلاف.

وإطلاعك على ما كانوا عليه محاولة لوصل فرعك بتلك الجذور، فلا حياة لفرع لا يغذّيه جذر، ولا يقيم أوده، ويسند وقفته، أصل. وهو محاولة أيضاً بتبصيرك بالامتداد الحضاريّ والتاريخي لأمّتك، ودفعك أنت وجيلك إلى أن تحاولوا أن تنافسوهم في الآنتاج، فتنتجوا خيرا مما أنتجوه، وتُقدّموا لمجتمعكم أفضل ممّا قدموه، فإمكاناتكم

أفضل من إمكاناتهم، والفرص متاحة لكم أكثر مما كانت متاحة لهم، أنتم أفضل في الجانب المادّيّ على الأقل، ولا أظن توفّر هذا الجانب إلا مؤثّراً على الجانب المعنوي. فثقافتكم أوسع من ثقافتهم على الأقلّ في أمور الدّنيا التي إن أحسنتم استغلالها جاءت لكم بخير الآخرة أيضا. لقد أتيح لكم أن تطلّوا من نوافذ واسعة على العالم، وأتيح لكم أن تجعلوا العالم يطلّ عليكم من آفاق تتحكّمون فيها كما تشاؤون، كمّا وكيفا، بطأ وسرعة، هدوءً وصخبا.

وكلما أردت أن أختم هذا الباب رأيت في عينيك الطّمع في ألاّ أفعل، أملا منك في أن آتي لك بشيء يرفّه عنك، ولو «بحّرت» في عينيّ، وسبرت غورهما، لوجدت فيهما من الطّمع مثلما في عينيك أو أكثر، ولكنّي أطمع في أن أعطيك من المغذّيات الفكريّة، والمقّويات الذّهنيّة خلاف ما تطمع فيه من أمل في أن أقصّ عليك قصّة. والحديث عن الطّمع يذكّرني بقصّة لا أشك في أنك الآن قد

غامـرتـك البهجة عند معرفتك بأنّي سوف أقصّها عليـك، وأرجـو وأنت في غمـرة المفـاجأة المغشّاة بالفـرحة ألّا تصرخ مثل صراخك وأمثالك عندما يدخل اللّاعب الكرة في الملعب، فالوقت من اللّيل الآن لا يسمح بالصّراخ.

والقصّـة التي سوف أرويهـا لك فيهـا عنصران تحبّهما حبّا جمّا الأول «جحا» والثاني «الطّمع» ولكنّها لسنّ أصغر من سنّك: وهذا قد «يقمع» الفرحة، و«يفثلها» قليلا كما «يفثل» المثاء شرابا مركّزا، وهي من قصص الجدّات:

يقال إن جحا طمع في أن يكون له جمل، ولم يكن له من المال ما يساعده على شرائه، فتـوصّل بعقله الجحوي إلى أن يحصل على دجاجة، (لاحظ أنّي لم أقل يشتري دجاجة، لأنّي لم أسمع أنه أشترى شيئا من السيدة التي قصّت عليّ القصّـة). ثم أدخـل الـدّجاجة خلســة في فنـاء دار جاره، واختفت، بين

الأغنام، فوطئتها الأغنام، وداستها بأقدامها، فأخذ يعول، ويدعو بالويل والثّبور، ولم يسكته إلّا عطف جاره عليه باعطائه عنزا بدلا من الدّجاجة، وتعزية له.

أخذ جحا العنز، وأدخلها خلسة، أيضاً، بين أبقار جاره، وهي أبقار فارهة وقويّة، فداستها الأبقار، وكسرت أضلاعها، وأعولت العنز قبل أن يُعول جحا، وملأت اللّيل صراخا وثغاء، وتلاحم صوتها مع صوت جحا وندبه، فتكوّن من صخبهما موسيقى نشازا، سهل معها على صاحب الأبقار أن يرخص بقرة، ويستبدل الرّاحة والهدوء بالبقرة الحلوب.

أخذ جحا البقرة، وقد قطع ثلثي الطريق إلى هدفه، ولم يبق إلا الثلث. فأدخل جحا البقرة على فناء دار جاره الثّالث، ووضعها بين الجمال، والمكان يضيق عن أن يتّسع لها

وللجمال، والجمال رؤوسها عالية، فلا ترحم من تحتها، وأوذيت البقرة، وأخذت تثغي، وقضت على سكون اللّيل، وأجفلت الجمال باضطرابها وصوتها، فأخذت الجمال ترغى، فحدث ما أمّل جحا أن يحدث، لقد تنازل صاحب الجمال عن جمل لجحا. وأجره عند الله.

قلت لك، عندما أردت أن أقصّ عليك قصة جحا هذه، أنّك سوف تبتهج بها، وسوف تسرّ وتفرح، لأنها عن جحا وعن الطمع. وكلمة الفرح هذه تجعلني أطلب منك أن تذكّرني لأسألك، فيما بعد، عن أقصى درجات الفرح والبهجة التي يمكن أن تتصوّرها، وسوف لا أطيل عليك في اعطائك الجواب الآن، لأني لا أتصوّر، وأنت حديث عهد بالاختبار، أنّ في ذهنك بقيّة قوة تسعفك على التّفكير والاجابة الصّحيحة. أما إجابتي ففيها بركة لأنها تأتي ضمن حديث للرسول ﷺ:

obeikandl.com

روى مسلم في صحيحه أنّ النّبي ﷺ قال: «لله أشدّ فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلّها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدّة الفرح: «اللّهم أنت عبدي، وأنا ربّك. أخطأ من شدّة الفرح».

هذا الحديث ـ يا بُنَيّ ـ تجده في باب التّوبة من صحيح البخاري، وله صيغ مختلفة، هذه احداها، ومسك الختام به خير من قصّة جحا وأبقى.

openkandi.com